فتلة وثلاث عقد

التقت ثلاث صديقات بعد انتهاء يومهنّ الدراسي استعداداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزل إحداهنّ كما اتفقن قبلها بعدة أيام. ركبت المجموعة الحافلة وجلسن بعضهن مع بعض في المقاعد الخلفية في انتظار وصولهنّ لمنزل (منى) وتناقشن بحماس فيما بينهنّ عن الأنشطة التي سيقمن بها خلال فترة بقائهن معاً.

(منى) لإحدى صديقتيها : لم أتوقع أن توافق خالتي على قدومك معنا يا (سمر)؟

(سمر) : كان ذلك بشق الأنفس! .. فقد مانعت لآخر لحظة خاصة أن الامتحانات النهائية على الأبواب وهذه آخر سنة لنا في الثانوية وتريد ان أركز في مذاكرتي للحصول على مجموع يؤهلني لدخول جامعة مرموقة

(منى) : وما الذي غير رأيها؟

(سمر) : عندما علمت أنني سأكون معكِ وافقت في الحال لثقتها الكبيرة بأمكِ وحزمها في التعامل معنا والتي فيما يبدو أنها تفوق ثقتها بي

(منى) ضاحكة : وماذا عنكِ يا (نجوى)؟! . .هل واجهتِ الصعوبة نفسها في إقناع أهلكِ بالحضور معنا والمبيت عندي نهاية هذا الأسبوع

(نجوى) : لا أبداً .. أعتقد أنهم حتى لم يسألوا أين نحنُ ذاهبات فهم مكفون كالعادة برقمكِ للتواصل معكِ في حال احتاجوا لذلك ولا أظن أن ذلك سيحدث

(سمر) : أحسدك على ثقة أهلك بكِ

(نجوى) : لا أستطيع تسميتها ثقة بقدر ما هي لا مبالاة

(سمر) : أيّاً كانت فهي أفضل من السجن الذي أعيش فيه .. ألا تتفقين معي يا (منى)؟ .. فأمك لا تختلف كثيراً عن والدتي في حزمها وحرصها المبالغ فيه

(منى) : لا أعرف .. لم أشعر يوماً بأن حرص أمي مزعجٌ لي بل على العكس تماماً كنت أراه نوعاً من المحبة

(سمر) واضعة يديها على عنق (منى) ساخرة : حب خانق!

(نجوى) ممازحة : فلتتقايض الأمهات إذاً! .. أسلوب أمكِ يعجبني!

(سمر) : موافقة! .. أين عقد التنازل لأوقع عليه؟!

ضحك الثلاث وأكملن نقاشهن عن مخططاتهن حتى توقفت الحافلة عند بيت (منى) ليترجلن منها سائرات نحو عتبة الباب وقبل دخولهن قالت (نجوى) :

«ما رأيكما أن نتوجه للمطعم القريب من هنا ونتناول الغداء قبل أن ندخل المعتقل؟»

(منى) ضاحكة : عن أي معتقل تتحدثين يا حمقاء؟!

(سمر) : معها حق فأمكِ لن تسمح لنا بالخروج حتى انقضاء اليومين ولن نرى نور الشارع إلا للذهاب للمدرسة

(منى) : لا تقلقا لقد وعدتني أمي بأن تسمح لنا بالخروج مرتين وقد اتفقت معها على ذلك لكن ليس الآن لأنها أعدت لكما وليمة غداء للترحيب بكما

(نجوى) لـ(سمر) : هذه الوليمة تبدو كالطعم الذي يوضع في المصيدة

(سمر) : نعم .. قبل أن يطبق الباب علينا ويقفل

(منى) : كفا عن المشاكسة وهيا ادخلا!

(نجوى) بشيء من التردد والخجل : هل (رجب) سيكون موجوداً في الداخل؟

(سمر) ساخرة : انظري لوجهها كيف تبدل وهي تسألكِ؟ .. احذري منها فهي مغرمة بأخيك وقد تتسبب لكم بفضيحة

(نجوى) بتجهم : اخرسي أنتِ ولا تتدخلي!

(منى) ضاحكة : دعيها فـ (رجب) قد طار من يديها .. أمي تنوي الذهاب غداً لتخطب له فتاة أخرى

(نجوى) بإحباط : تخطب له؟

(منى) : نعم .. أخي لم يعد ذلك الشاب الذي كان يتودد لكِ عندما كنتِ في الإعدادية فقد كبر وتخرج وأصبح موظفاً ويريد الزواج ثم

إنه لم يعد يقيم معنا منذ أن تعين خارج المدينة وقد ترك مهمة اختيار زوجته المستقبلية لأمي

(نجوى) : سيتزوج من فتاة لم يرَها من قبل؟

(سمر) : ولمَ تتحدثين وكأن الأمر شيء غريب وغير مألوف؟

(نجوى) : لكنه لا يحبها!

ضحكت الاثنتان على صديقتهما التي من الواضح أنها أصيبت بالغيرة وبدأنا تسخران منها ..

بعد دخولهن للمنزل ووضع حقائبهن على معاليق الملابس عند المدخل سار الثلاث لغرفة المعيشة حيث كانت (أم رجب) تجلس على إحدى الأرائك وهي سيدة ممتلئة الجسد بوجه قمري مشرق محجبة بحجاب أبيض وتلبس رداءً زهرياً غطى جسدها بالكامل يشبه في تصميمه الرداء المخصص للصلاة.

جلست بجانبها امرأة في الثلاثين من العمر تقريباً مكشوفة الرأس بشعر أسود طويل لماع لم تتعرف عليها صديقتنا (منى) ولم ترياها من قبل وقد بدت لهما غريبة للوهلة الأولى فقد كانت سيدة بملامح حادة وعيناها مكتحلتان بكثافة فخطوط كحلتها العريضة خرجت

عن حدود محاجرها بعض الشيء ومعاصمها وأصابعها التي حاولت إخفاءها على الفتيات عند رؤيتهنّ امتلأت بالأساور والخواتم العريضة ذوات الفصوص الكبيرة ووشمت عليها بعض الرسومات البسيطة برموز غريبة وأنفها خُرم بفصٍّ أبيض لامع وعنقها تزين بعقد ذهبي ضخم مزركش بمجموعة من الفسافِس الكرستالية بألوانٍ زاهية بعكس أظافرها الطويلة بعض الشيء والمبرية كالمخالب والتي صبغت بلونٍ غامق غير مألوف مال لخليط بين اللونين الأسود والأزرق.

تقدمت (منى) نحو أمها وقبلت رأسها ويدها ثم مدت كفها الأيمن نحو المرأة وسلمت عليها ببرود وقالت : «كيف حالك يا خالة (أم حسن)؟»

تبسمت (أم حسن) وعيناها على الفتاتين عند مدخل الغرفة : «بخير يا أميرة .. ألن تعرفينا بصاحبتيكِ؟»

سارت الفتاتان وسلمتا على والدة (منى) وقبلتا رأسها فقامت هي بالتعريف بهما وقالت : هاتان هما أعز صديقات ابنتي (منى) .. (سمر) و(نجوى) .. يعرفن بعضهنّ بعضاً منذ المرحلة الإعدادية ولم يفترقن من حينها

(أم حسن) وهي تمعن النظر إليهما وبابتسامة مريبة : «الصداقة الوطيدة شيء جميل ..»

(منى) لأمها وقد بدا عليها عدم الارتياح :

«سوف نصعد لغرفتي يا أمي.. هل تريدين شيئًا مني؟»

(أم رجب) : لا يا حبيبتي .. سوف يكون الغداء جاهزاً بعد ساعة

(منى) وهي تشد صديقتيها معها قبل رحيلها رامقةً (أم حسن) بنظرة : حسناً يا أمي سنكون في غرفتي

خرجت الفتيات من غرفة المعيشة وخلال صعودهنّ السلالم قالت (سمر) : «من تلك المرأة الغريبة؟»

(منى) بتضجر : جارتنا (أم حسن)!

(نجوى) : تبدو مريبة .. لم أرتح لها أو لنظراتها

(منى) : لا أحد يرتاح لها سوى أمي

(سمر) : ولمَ تصاحب خالتي امرأة مثلها؟

(منى) وهي تدير مقبض باب غرفتها : صدقي أو لا تصدقي فأمي تحبها

(نجوى) قافزة على سرير (منى) : تحبها؟ .. لكنهما مختلفتان بعضهما عن بعض تماماً

(منى) فاتحة الستائر ونافذتها المطلة على الشارع :

«حاولت مراراً أن أنصحها بالابتعاد عنها وعدم استقبالها عندنا لكن لا فائدة .. تقول بأنها امرأة خيرة بالرغم من مظهرها ..»

(سمر) جالسة على أحد الكراسي : أعتقد أنها ساحرة

(نجوى) ضاحكة : ماذا؟! .. ساحرة؟!

(سمر) بنبرة جادة : نعم .. ألم تري شكلها وطريقة لباسها؟

(نجوى) : أنتِ واهمة

(منى) : في الحقيقة أتفق مع اعتقاد (سمر) .. سيطرتها على أمي غريبة

(نجوى) : كونها تحب الجلوس معها من وقت لآخر فهذا لا يعني أنها ساحرة تسيطر عليها .. خففي من خيالكِ الجامح

(منى) وهي تجلس على كرسي بجانب النافذة المفتوحة : لم أبنِ اعتقادي على هذا فقط ..

(سمر) باهتمام : ماذا لاحظتِ عليها أيضاً؟

(نجوى) وهي تستلقي بالكامل وتحدق بسقف الغرفة : أنتما مجنونتان

(منى) موجهة الحديث لـ (سمر) : رأيت أمي تمد لها بعض النقود خلسة في عدة مناسبات

(نجوى) بنبرة متهكمة وهي لا تزال تحدق بالسقف : تتصدق عليها .. ما المشكلة؟

(منى) مديرة نظرها نحو (نجوى) : مشكلتي ليست في إعطائها المال بل في عدد المرات وفي الطريقة التي كانت تمدها أمي لها وكأنها تخشى أن يراها أحد

(سمر) : ربما لا تريد أن تنتقديها

(منى) : أنا لم أتحدث معها إلا مرة بهذا الخصوص وقد غضبت مني وأمرتني بعدم التدخل فيما لا يعنيني

(نجوى) رافعة رأسها معتدلة في جلستها على السرير : وأنا أنصحك بذلك أيضاً

(سمر) : هذا ما لاحظتِه فقط؟

(منى) : لا .. أمور أخرى ايضاً .. زياراتها المفاجئة وغير المعلنة والتي تكون أحياناً في وقت متأخر بالليل وأمي بالرغم من نومها في

وقت باكر بعد ما تصلي العشاء إلا أنها تنهض من فراشها بكل نشا
وتستقبلها دون أي تذمر وتجلس معها لعدة ساعات وكأنها لا تستطي
رفض طلبها ناهيك عن توقفها عن الحديث عندما أدخل عليهم
وتحويل الموضوع عني وكأنهما تريدان تنفيري من البقاء معهما

(نجوى) : كلها أمور طبيعية .. أمك امرأة وحيدة وجارتكم هذ
بالرغم من غرابة مظهرها فهي فيما يبدو أقرب صديقة لها وعلاقتهم
وطيدة

(سمر) : لكن لا تنكري أن خالتي (أم رجب) سيدة متدينة ومن غير
المألوف أن تصاحب امرأة مثلها

(نجوى) : مثلها كيف؟ .. هل ستحكمين على أخلاقها من شكلها؟ ..
لا يحق لنا أن نصدر حكماً مسبقاً عليها ونحن لم نتعامل معها

(منى) : أنا تعاملت معها ولعرف أن اخلاقها ليست سوية

(نجوى) : كيف؟

نهضت (منى) من الكرسي ووقفت عند طرف النافذة وأشارت
لصديقتها بالاقتراب ..

بعد وقوفهما بجانبها مدت سبابتها نحو باب المنزل المجاور لها
وقالت : هذا بيتها

(نجوى) : وما المشكلة؟

(منى) : دائماً أحب مراقبة الشارع وأنا أذاكر ليلاً، وقد شاهدت أكثر
من مرة أناساً يزورونها في أوقاتٍ مختلفة .. نساءً ورجالاً .. وهي سيدة
عزباء

(سمر) يتهكم : هذا لا يجعلها ساحرة بل عا..

(نجوى) مقاطعة بغضب : كفا عن اللغو في أعراض الناس بهذه
التكهنات! .. كل ما قلتِه يا (منى) حتى الآن لا يثبت شيئاً!

(منى) : ماذا لو قلت لكِ إن أمي طلبت منها مرافقتها غداً لمنزل الفتاة
التي ستخطبها لأخي (رجب) ولم تطلب مني أنا ذلك

(نجوى) : ماذا؟ .. هذا أمر غريب فعلاً

(سمر) : ولمَ تفعل شيئاً كهذا؟

(منى) : أخبرتكما أن تلك المرأة تسيطر عليها

(نجوى) : أستغرب من أنكِ لم تخبرينا بهذا الأمر من قبل

(منى) : وماذا كنت سأقول؟ .. ثم إني لم أصل لمرحلة القلق إلا بالأمر عندما أبلغتني بأنها هي من سترافقها عوضاً عني وكانت حجتها أنها لا تريد أن تشغلني عنكما وأتركهما وحدكما وأنتما ضيفتان عندي

(نجوى) : حجة منطقية لو سألتني

تجهمت (سمر) قائلة : لا ليست منطقية .. أنا أتفق مع (منى) .. علاقة هذه المرأة مع خالتي ليست طبيعية

(نجوى) بتهكم : وماذا تنويان أن تفعلا؟ .. تبلغان الشرطة عنها؟

(منى) : هذه ليست فكرة سيئة .. لكن نحتاج قبلها دليلاً يدينها

(سمر) : وكيف سنحصل على هذا الدليل؟

نظرت (نجوى) لهما باستغراب وقالت : هل تسمعان أنفسكما؟ .. بحقيقة هل تسمعان الجنون الذي يخرج من أفواهكما الآن؟

(منى) بحدة من الناقلة بباب منزل (أم حسن) : «أمي في خطر أنا واثقة من ذلك ويجب أن أنقذها ..»

(سمر) : وأنا معكِ ..

(نجوى) : وأنا متعجبة وأرى أن ما تنويان القيام به عبث غير مجد ومضيعة للوقت

(سمر) : ماذا تقترحين إذاً؟ .. أن نصمت ونتجاهل الأمر وكأن لا شيء يحدث

(نجوى) : لا .. خالتي امرأة عاقلة وأرى أن نتحدث معها قبل أن نقوم بأي شيء نندم عليه لاحقاً .. عندما نجلس معها على الغداء نفاتحها بالموضوع .. ما رأيكما؟

(سمر) : ما رأيك يا (منى) في اقتراح (نجوى)؟

(منى) : موافقة .. لتتمنَّ فقط ألا تبقى تلك الساحرة على الغداء أيضاً

(نجوى) ضاحكة : أنتِ لا تزالين مصرة على أنها ساحرة!

بعد رحيل (أم حسن) جلس الجميع على مائدة الغداء التي عاون الفتيات (أم رجب) في صف وترتيب أطباقها وخلال تناولهن الطعام فتح النقاش وأثير الموضوع من قبل (منى) التي قالت : «نريد أن نتحدث معكِ بخصوص أمرٍ مهم ..»

(أم رجب) باسمة وهي تتناول بعض الحساء : ماذا تخططن يا بناتي؟

(منى) : جارتنا ..

(أم رجب) : (أم حسن)؟ .. ما بها؟

(سمر) : بصراحة يا خالة نحن لسنا مرتاحات لها

(نجوى) : صحيح يا خالتي هناك أمر مريب بها

(أم رجب) بتعجب : وهل تعرفانها كي لا ترتاحا لها؟ .. أنتما لم تقابلاها إلا اليوم

(منى) : أنا أعرفها جيدًا يا أمي وأتفق معهما .. تصرفات هذه المرأة غريبة الأطوار

(أم رجب) مكملة تناول طعامها قائلة ببرود : وما الذي يدر منها كي تقلن ذلك؟

(سمر) : هيئتها وثيابها ..

(نجوى) : الحلي والخواتم التي تلبسها ووسومها ..

(أم رجب) : مشكلتكنّ إذاً مع شكلها وليس سلوكها

(منى) : لا .. زياراتها المتكررة لنا .. تعلقكِ المبالغ بها وعدم رفضك لطلباتها .. إعطاؤكِ المال لها بدون تحفظ وأشياء كثيرة غيرها

(أم رجب) : هذه تصرفات تخصني ولا تخصها .. ما الحكاية .. قلن الصدق

(منى) : الحكاية بكل بساطة أننا نريدك أن تبتعدي عنها لأنها امرأة سيئة وستلحق بكِ الضرر عاجلاً أم آجلاً ..

(أم رجب) : أنتنّ واهمات .. لم أرَ منها سوى كل خير

(منى) : وهنا تكمن المشكلة

(أم رجب) وقد بدأت تستاء من الحديث عن الموضوع : ماذا تقصدين؟

(سمر) : صدقيني يا خالة أن تلك المرأة ليست طبيعية وقد تضمر لكِ الشر

(نجوى) : نحن خائفات عليكِ فقط من أن تتعرضي للخطر

وضعت (أم رجب) الملعقة على الطاولة بجانب طبق الحساء وقالت بهدوء :

«عن أي خطر تتحدثن؟ .. ماذا تردن مني أن أفعل؟ .. لا أستطيع منعها من زيارتي فهي جارتنا وحق الجار على الجار أمر لن أفرط أو أقصر به مهما قلتن . .أنا لا أعرف ماذا قالت لكما (منى) عنها لكن (أم حسن) جارة لنا منذ سنوات ولم نرَ منها أي شر أو ضرر كما تدعين وبالنسبة لحكاية المال فالمرأة فقيرة ومسكينة وأمد لها يد العون من وقتٍ لآخر وبالنسبة لتكرار زياراتها فأنا من يطلب منها ذلك معظم الوقت

وزياراتها لي تؤنسني خاصة من بعد رحيل (رجب) وصديقتكما العزيزة تقضي معظم وقتها بين أربعة جدران في غرفتها ولا أراها إلا وقت تناول الوجبات مثل الآن أو على الهاتف أو الحاسوب فلو كان هناك غريب أطوار فهو ابنتي وليست (أم حسن)»

(سمر) : ماذا عن ملابسها والحلي الذي تلبسه يا خالة؟ .. ألم تعجبك غرابتها ريثكِ مثلنا؟

(أم رجب) : ملابسكنّ أيضاً غريبة وغير محتشمة أحياناً هل رأيتني أعلق عليها من قبل؟

(منى) : هناك فرق ..

(أم رجب) وقد تغيرت نبرة حديثها وبدأت تفقد هدوءها :

«ما الفرق؟! .. ألستنّ أنتنّ من تنادين دوماً بحرية الاختيار؟ .. إذاً لتدخلن في اختياراتها؟ .. مثلما تردن أن يحترم الناس اختياراتكن احترمن أنتنّ اختياراتهم .. وماذا عني أنا؟ .. هل تعجبكنّ ملابسي المحتشمة أم يجب عليّ أن أغيرها كي لا تكون مثيرة لريثكن مني؟!»

(نجوى) هامسة في أذن (سمر) :

«الخالة صلبتنا وبددت حججنا كلها .. أرى أن ننهي الحديث قبل أن تقضي علينا تماماً ..»

(منى) بتذمر : استهاتتكِ للدفاع عنها يا أمي هو ما يثير ريبتنا الآن!

(أم رجب) : أنا لا أستميت في الدفاع عن أحد لكن الحق أحقُّ أن يُتّبع وهو ما أدافع عنه وأنا لم أرَ منها أي سوء أو كلام مزعج مثل ما أسمعه منكنّ الآن .. لا تكنّ يا بناتي مشككات فيمن حولكنّ لمجرد كونهم مختلفين عنكنّ أنتنّ أعقل من ذلك

(نجوى) : معكِ حق يا خالة

(سمر) : نحن آسفات وحديثنا كان فقط من دافع خوفنا عليكِ

نظرت (منى) بتعجب لصديقتيها اللتين رفعتا راية الاستسلام سريعاً وقررنا الانصياع لأمها ..

(أم رجب) باسمة : أكملن غداءكنّ الآن ثم صلين العصر واطلبن من الله أن يهديكن لما يحب ويرضى وأن يطهر قلوبكنّ من سوء الظن بعباده وأنا سأدعو لكنّ كذلك

(سمر) : حاضر يا خالة

(نجوى) : سنكون عند حسن ظنكِ بنا نعدكِ بذلك

(أم رجب) : وماذا عنكِ يا (منى)؟

(منى) : وهل هناك شيء يمكنني قوله بعد ما قالته الملائكة هنا؟

أكمل الفتيات غداءهن وعاونّ (أم رجب) في رفع الأطباق من على المائدة وغسلها ثم صعدن لغرفة (منى) واجتمعن لمناقشة ما دار بينها وبينها ..

(منى) وهي تغلق باب غرفتها :

«من الواضح أن أمي ليست في عقلها وأن تلك الساحرة مسيطرة عليها ..»

(نجوى) وهي تجلس على طرف السرير :

«في الحقيقة كلامها يحمل شيئاً من العقلانية فنحن لا نملك أي دليل على ما نقول سوى أن هيئتها لم تعجبنا ..»

(منى) قاضمة طرف ظفر خنصرها سارحة : لا أعرف .. أنا خائفة على أمي

(سمر) بعد ما جلست على الكرسي بجانب النافذة :

«الأمر خرج من يدنا ولا يوجد شيء يمكننا أن نقوم به فخالتي لن تسمح لأحد بالتدخل في علاقتها مع (أم حسن) ..»

(منى) وسرحانها ينقطع : الحل هو أن نتخلص منها ..

(نجوى) : نتخلص ممّن؟

(سمر) : من (أم حسن) بالطبع يا حمقاء .. لكن كيف؟

(منى) : نبلغ عنها الشرطة وهم يتولون البقية

(نجوى) : وما هي التهمة والأهم من ذلك ما الدليل عليها؟

(منى) : التهمة نحن متفقات عليها وهي أنها ساحرة خبيثة وأما بالنسبة للدليل فسوف نحصل عليه ومسألتك لأمي أنها على خطأ وأن ثقتها بها ليست في محلها

(نجوى) بخليط من التهكم والتشكيك : وكيف تنوين القيام بذلك أيتها المحققة؟

(منى) : سنزورها في منزلها وسنكتشف أمرها

(نجوى) : تتحدثين وكأن الأمر سهل ثم ما الذي سنستفيده من زيارتها ونحن لا نعلم كيف نتعرف على السحرة .. هل ستبحثين عن مكنستها التي تحلق بها؟

(سمر) : كوني جادة في الحديث أو اصمتي!

(نجوى) : أنا جادة وأعتقد أنه يمكنني المساعدة في هذا الأمر

(منى) باهتمام : حقاً؟ .. كيف؟

(نجوى) : أعرف فتاة بمدرستنا أخوها يعمل في الشرطة لعله يمكن أن يفيدنا فقد سمعتها عدة مرات تتحدث عن مشاركته في حملات مداهمة لأوكار السحرة

(سمر) : لم أفهم .. ما علاقة ذلك بما نريد القيام به؟

(نجوى) : الشرطة لا تقبض على السحرة وتدينهم دون دلائل وأدلة دامغة وربما معرفتنا لبعض تلك الدلائل والمؤشرات التي يعتمدون عليها تكون مفيدة لنا

(منى) : فكرة جيدة .. متى تستطيعين الحصول على هذه المعلومات؟

(نجوى) مخرجة هاتفها من جيبها : يمكنني الحديث معها الآن

(منى) بحماس : هيا إذاً ماذا تنتظرين؟!

تواصلت (نجوى) مع زميلتها وبعد محادثة قصيرة أغلقت الخط..

(منى) : ماذا قالت؟

(نجوى) : قالت لي بأنها لا تعرف شيئاً عن هذا الموضوع لكنها سـ أخاها وتعاود الاتصال بي لاحقاً ..

(سمر) : ومتى ستتصل؟

(نجوى) : لا أعرف وإلى حين ذلك فلننس الأمر ونستمتع بيومنا فقد أخذ حصة كبيرة منه وأنا لم آتِ هنا للتحدث عن الساحرات

(منى) باسمة : حسناً هيا لنستأذن من أمي ونخرج للتنزه قليلاً في المجمع التجاري القريب من منزلنا

وافقت (أم رجب) على خروج الفتيات شريطة أن ترافقهنّ وهنّ لم يمانعن ذلك وأمضين عدة ساعات في المجمع التجاري حتى حلول المغرب وعندها رن هاتف (نجوى) وهنّ جالسات في أحد المقاهي فارتبكت لأن المتصل كانت زميلتها التي تواصلت معها سابقاً بشأن المعلومات عن الساحرات ولم تتمكن من الإجابة عليها فوراً بسبب وجود والدة (منى) معهن فاستأذنت للنهوض ولكنها استوقفتها قائلة : «إلى أين أنتِ ذاهبة؟»

(نجوى) بارتباك : إلى الحمام يا خالة

(أم رجب) بشيء من الاستنكار : من الذي يتصل بكِ؟

(نجوى) : هذه أمي.. أعتقد أنها تريد الاطمئنان عليّ

(أم رجب) : أبلغيها سلامي ولا تتأخري

فتحت (نجوى) الخط وقربته من أذنها وسارت مبتعدة عن مكان جلوسهنّ وهي تقول : «حاضر سأبلغها ..»

بقيت الفتاتان صامتتين ترافبان صاحبتهما تبتعد عنهنّ وهما تعرفان من المتصل بها بسبب ارتباك (نجوى) الملحوظ لكن (أم رجب) أخذت تتفحص نظراتهما لها وقالت : ما بكما؟

(منى) معيدة نظرها نحو أمها بتوتر : لا شيء .. لا شيء يا أمي!

(سمر) رافعة كوب القهوة أمامها : نعم لا شيء يا خالة

صمتت (أم رجب) ومن الواضح أن الشك تسلل لقلبها لكنها لم تقل شيئاً آخر وأكملت تناول قطعة من الحلوى كانت قد أنهت نصفها.

بعد عودة (نجوى) لم يُثر موضوع المكالمة وقالت (أم رجب) وهي تسمع نداء صلاة العشاء يرفع من خلال مكبرات المجمع التجاري: «هيا لنعود للمنزل .. لقد بقينا طويلاً في هذا المكان .. أريد الصلاة على سجادتي»

عاد الجميع للمنزل وما أن دخلن حتى جرت الفتيات الثلاث للطابق العلوي على عجالة مما زاد من الريبة والتوجس في قلب (أم رجب) التي اكتفت بمراقبتهنّ وهنّ يصعدنَ السلالم جرياً حتى دخلنَ غرفة

(منى) وأغلقن الباب خلفهنّ. حاصرت الفتاتان المتحمستان (نجوى) وانهالتا عليها بالأسئلة وهي بدورها أشبعت فضولها وأجابتهما قائلة :

«أخبرتني بأن أخاها قال لها إن أغلب من يُقبض عليهم ليسوا سحرة حقيقيين بل مجموعة من المحتالين والمدعين للسحر وإنهم يدانون قانونياً على هذا الأساس لأنهم يبيعون الوهم للناس ويتقاضون منهم أموالاً مقابل خدمات مستحيلة التحقيق مثل الربط والتفريق وغيرها .. »

(سمر) : ومن قال إن تلك الخدمات مستحيلة التحقيق؟

(منى) بإحباط : لم نستفد شيئاً إذاً

(نجوى) : ليس تماماً .. تقول بأن أخاها حدثها عن قسم خاص لمكافحة السحر والشعوذة في «هيئة مكافحة الفساد والرذيلة» .. وأنه يعرف شخصاً يعمل في ذلك القسم ويمكن الاستعانة به في مثل هذه الأمور لكنه أرهقها تحقيقاً بسبب سؤالها ولم يزودها برقمه حتى أقنعته أنها خدمة لإحدى صديقاتها وأن لا علاقة لها شخصياً بالموضوع

(منى) : وهل أخبرها أنتِ بشيء عن حقيقة ما ننوي القيام به؟

(نجوى) : بالطبع لا .. أخبرتها بأن صديقة لي تشك في جارتهم وأنها تؤذي أمها بأعمال سحرية وأنها تريد التحقق من حقيقتها

(سمر) بتهكم : كل هذا ولم تخبريها بشيء؟

(نجوى) : لم أخبرها أي صديقة كنت أعني وفي كل الأحوال حصلنا على شيء مفيد لنا .. رقم صديق أخيها الذي كان يعمل في الهيئة

(منى) : «كان يعمل..؟»

(نجوى) : نعم .. قال لها أخوها بأنه قبل أن يعطيها رقمه تواصل معه ليستأذن منه فعلم بأنه قدم استقالته منذ مدة بسبب قضية ما ولم يعد يعمل في الهيئة لكنه أكد لها أنه كان الأفضل في ذلك القسم واستقالته لا علاقة لها بأدائه وخبرته

(منى) : لا يهم .. المهم أن نتواصل معه بأسرع وقت

(نجوى) : هل من اللائق أن نتصل به في هذه الساعة؟

(منى) : وما المشكلة؟ .. هذا ليس اتصالاً للتعارف يا بلهاء هذه استشارة .. هيا اطلبي الرقم وافتحي السماعة كي نسمع جميعنا حلاً

(نجوى) وهي تدخل الأرقام : حسناً ..

قبل أن تكبس على زر طلب الرقم طُرق الباب فانتفض الثلاث جزعاً

فقامت (نجوى) بدس الهاتف في جيبها بينما قالت (منى) بنبرة عالية مرتبكة : نعم!

فُتح الباب وأطلت (أم رجب) برأسها وحدقت بهنّ لثوانٍ ثم قالت : هل صليتن العشاء؟

(منى) : سنصلي الآن يا أمي

(سمر) : حاضر يا خالة لقد نسينا

(نجوى) : أنا لا صلاة لي اليوم يا خالة

(أم رجب) : إذاً اتبعاني أنتما وصليا معي فمن الواضح أني لو خرجت فستنسيانها مجدداً

ضباب الحقيقة

لحقت (منى) و(سمر) بـ (أم رجب) وتركتا (نجوى) وحدها بالغرفة وبعد أقل من نصف ساعة عادتا مجدداً ووجدتا صاحبتهما مستلقية على الفراش غارقة في النوم وهاتفها على صدرها يصعد ويهبط مع أنفاسها فدنت (منى) منها ووكزتها قائلة : «انهضي!»

(نجوى) فاتحة عينها الناعسة : لمَ تأخرتما؟

(سمر) وهي تجلس على طرف السرير : «الخالة أصرت على إعطائ
بعض المواعظ بعد الصلاة ..»

دعكت (نجوى) النعاس من عينيها بقبضتها واعتدلت في جلسة
قائلة :

«يبدو أني غفوت بعد حديثي مع (خالد) ..»

سحبت (سمر) كرسياً وجلست عند السرير وقالت : (خالد) من؟.
صاحبكِ؟

(نجوى) باسمة : لا .. الخبير

(منى) : أي خبير؟ .. هل تقصدين ..

(نجوى) مقاطعة بنبرة حالمة : نعم .. خبير السحر والشعوذة .. صوتٌ
كان دافئاً

(سمر) بعصبية : لمَ تحدثتِ معه في غيابنا؟!

(منى) ملوحةً بيدها لها للسكوت : لا يهم ذلك .. هل حصلتِ
على شيء مفيد؟

رفعت (نجوى) هاتفها الذي سقط جانباً خلال جلوسها زافرة
بارتياح :

«حصلت منه على الكثير ..»

(سمر) باستنكار : ما بها البلهاء؟

(منى) متهكمة : يبدو أنها وقعت تحت تأثير سحر خبير السحر

(نجوى) : نعم لن أنكر ..

(سمر) : وهل ستنتظر طويلاً قبل أن تكرمينا بما قاله حبيبك الجديد؟

(نجوى) ضاحكة : حسناً اسمعا .. شرحت له الأمر برمته وكان
متردداً في البداية في التحدث معي لكنه مع الوقت وتوسلاتي له
بمساعدتي اطمأن لي وتكلم

(منى) : وماذا قال؟

(نجوى) : طلب مني إحضار ورقة وقلم وتدوين بعض الأمور وقال
لي إنها مؤشرات يمكن ملاحظتها وطرق لو تمكنت من تطبيقها فسوف
تحسم لي الأمر وأستطيع من خلالها تحديد ما إذا كانت (أم حسن)
ساحرة أم لا

(سمر) : لا أرى ورقة في يدك

(نجوى) : في الحقيقة لم أجد ورقة وقلماً وأخبرته بأني أحضرتهما لأني خشيت أن يعمل خلال بحثي عنهما وأنا لا أعرف أين نضعيهما في غرفتك

(منى) وهي تشير بسبابتها لمكتبها في أقصى الغرفة بتجهم : «وهل تظنين أني أضع هناك .. طعاماً؟»

(نجوى) : وقتها لم أفكر واعتمدت على ذاكرتي

(سمر) : دعينا من هذا الكلام .. ماذا قال؟

(نجوى) : سأبدأ بالمؤشرات .. ذكر أن الساحرات دون السحرة يكرهن تناول الملح المذاب في الماء وينفرن منه بشكل كبير وملحوظ

(منى) بنبرة ساخرة : أمي لا تحب الملح بسبب ارتفاع ضغط دمها .. هذا ليس مؤشراً حقيقياً يمكن الاعتماد عليه

(سمر) بتهكم : وأمي تكره السكر لأنها مصابة بداء السكري .. هل هذا يعني أنها مشعوذة؟

(نجوى) بعصبية : وما أدراني أنا؟! .. هذا ما قاله!

(منى) مشيرة لـ (سمر) باسمة بصمت بأن تكفا عن الكلام ..

(نجوى) مستأنفة حديثها بتجهم :

«قال أيضاً بأنهنّ يكرهنّ الكلاب ويحببن القطط وغالباً تجدين مع كل ساحرة قطة تربيها وإذا لم تكن تقتني واحدة فستجدينها تحرص على إطعام قطط الشوارع بشكل متكرر ..»

(سمر) : أنا لدي قطة

(منى) : وأنا كذلك كنت أمتلك واحدة إلى وقتٍ قريب .. ما هذه المؤشرات السخيفة؟

(نجوى) محاولة كظم غيظها : الحديث ليس عنكما .. لمَ لا تستوعبان ذلك؟

(منى) : ليس عنا نعم لكننا نحتاج أدلة حاسمة وليس أموراً يمارسها أغلب الناس

(نجوى) : لمَ تستمران بمقاطعتي؟! .. عندما أنتهي أثرياني بتعليقاتكما كي لا تطير المعلومات من رأسي!!

(سمر) واضعة أصابعها الأربعة على فمها : حسناً .. حسناً .. أكمل

سنصمت

(نجوى) زافرة : قال أيضاً إن الساحرات لهنّ علاقة وطيدة بالإبرة والخيط فهنّ إما أن يمارسن الخياطة كمهنة أو كهواية ويحكن القطع القماشية من وقتٍ لآخر بسبب أو دون سبب ومؤشر آخر ذكره لي وأظنه ليس بمؤشر عادي وهو أنهنّ دائمات الاكتحال لكن بطريقة معينة مهما اختلفت الرسومات وهي أن يخرج خط الكحل عن محاجرهنّ ولو بشيء بسيط وقد لاحظنا ذلك على جارتكِ اليوم أليس كذلك؟

(منى) : بل لكني ما زلت غير مقتنعة بهذه المؤشرات .. هل أخبرتكِ بشيء غيرها؟

(نجوى) : لا .. هذه فقط ..

(سمر) : ماذا عن الطرق التي قلتِ بأنه يمكن تطبيقها؟

(نجوى) : آه نعم صحيح .. نسيت .. فعلاً لقد ذكر لي بعدها بعض الاختبارات التي يمكنني تطبيقها لو استطعت

(منى) دون حماس : ما هي؟ .. أخبرينا

(نجوى) : إن كان كلامي لا يعجبكما فلن أكمل

(سمر) بضحكة مصطنعة ماسحة على رأسها : «لا لا .. أكملي لعل القادم أفضل ..»

(نجوى) : قال إن السحرة عموماً يحرصون على استخدام يدهم اليسرى في كل شيء ويستخدمون اليمنى فقط عندما يريدون إخفاء هويتهم والتمويه على من يعتقدون أنهم يشتبهون في أمرهم

(منى) : ماذا لو كان أعسرَ؟ .. فهل هذا يعني أنه ساحر؟

(سمر) : دعيها تكمل ولا تقاطعيها كي لا تغضب مجدداً

(منى) : بصراحة أشعر بخيبة مما سمعت .. كلها أمور عامة لا يمكن قياسها ولا تحسم شيئاً من شكوكنا

(نجوى) : ربما ما قاله في آخر حديثنا قد يقنعكِ

(منى) : وماذا قال هذا العالم الفذ؟

(نجوى) : قال قد لا تنجح بعض تلك الطرق التي زودني بها لو كانت الساحرة التي سأختبرها قوية ومتمكنة واحتمال تجاوزها جميع هذه الاختبارات عالٍ جداً

(منى) ضاحكة : بالطبع سيضع لنفسه مخرجاً!

(سمر) : لكن يا (منى) ما مصلحته من ذلك؟

(منى) : كي يوهمنا بأنه صاحب علم .. هو لا يختلف عن السحرة الذين يدعي محاربتهم .. كلهم محتالون .. الفرق بينه وبينهم هو أن القانون يقف في صفه ويعطيه صلاحية أكبر لفرض نظرياته المعطوبة

(نجوى) : لكنه أضاف أنه من المستحيل أن تجتاز اختباراً واحداً تفشل فيه كل الساحرات القويات دون الضعيفات وهي أنهنّ لا يستطعنَ المرور تحت الثريات الزجاجية أو الوقوف أسفل منها مدة طويلة

(منى) باهتمام : وأخيراً ذكرتِ شيئاً يستحق .. هل أكد لكِ أن هذا أمر مستحيل عليها تحمله؟

(نجوى) : نعم لكن هذا على افتراض أنها ساحرة قوية ذات رتبة عالية كما قال .. لكن لو كانت ضعيفة أو مبتدئة فستجتاز هذا الاختبار بسهولة

(سمر) : أعتقد أننا نضيع وقتنا وأن الأمر أسهل من ذلك بكثير .. نزورها في منزلها ونتحقق بأنفسنا وينتهي الأمر

(منى) : هل أنتِ حمقاء؟ .. كل ما قمنا به هو كي لا نذهب لها دون طريقة نتيقن بها

(سمر) : صدقيني لا نحتاج لذلك .. لدي شعور قوي بأننا سنعرف دون كل هذا

(منى) : هل هذا رأيكِ؟

(سمر) : نعم .. ما رأيكِ أنت يا (نجوى)

(نجوى) : في الواقع لست مطمئنة لهذا الاقتراح

(منى) : لا تأتي معنا إذًا وابقي هنا مثلما بقيتِ عندما ذهبنا للصلاة وتحدثي مع حبيبك الجديد!

(نجوى) : لمَ هذه الوقاحة معي؟!

(سمر) : هدئي من روعك يا منى نحن لسنا ضدك فلمَ هذا الانفعال؟

(منى) بعصبية : لأنكما لستما واقعتين في المشكلة مثلي! .. تلك الساحرة تهدد أمي ويجب أن أضع حدّاً لها وبسرعة!

(سمر) : وما دخلي أنا كي تضمني معها؟! .. أنا أثق معكِ!

(منى) ناهضة من مكانها : لقد اتخذت قراري وسأذهب لها والآن!..
هل ستأتيان معي أم لا؟!

(سمر) : لن أكرر كلامي.. أخبرتكِ بأني معكِ في كل ما تقررين

(منى) لـ (نجوى) بوجه عابس : وأنتِ؟!

(نجوى) : وأنا سآتي أيضاً

(منى) : حسناً هيا بنا!

(نجوى) : وماذا ستقول للخالة؟

(منى) : أمي تنام في هذا الوقت ولن تشعر بخروجنا ثم إن منزل (أم حسن) ملاصق لنا وليس بعيداً .. هيا لنضع حداً لهذا الأمر ونحسمه بشكل نهائي وتثبت أنها ساحرة حقيرة!

(نجوى) : ولو حسمناه؟ .. ماذا بعدها؟

(منى) : سنتصل بالشرطة بالطبع ليقبضوا عليها بعد ما نملك الدليل على إدانتها..

عندما اكتملت الساعة التاسعة مساءً تسللت الثلاث خلسة وبحذر شديد من المنزل بالرغم من أن (أم رجب) لم تكن في غرفة المعيشة

وأخذت (منى) معها مفتاحاً كي لا يضطررن لطرق الباب عند عودتهنّ وتوجهن مباشرة لمنزل جارتها الذي كان يبعد عدة خطوات منهنّ وطرقوا بابها. وقفن جميعاً يترقبن بخليط من الحماس والتوتر حتى فُتحت درفة الباب ليجدن (أم حسن) تقف أمامهن بهيئة أغرب مما شهدنها سابقاً فقد كانت حافية القدمين وأظافر أصابعها طليت باللون الأسود الممزوج بالأزرق مثل أظافر يديها وتلبس لباسًا قصيراً من الحرير الأسود مكشوف الأكتاف والمساحيق الثقيلة غطت وجهها خصوصاً الكحل الكثيف حول عينيها وعند رؤيتها هنّ تبسمت وقالت :

«ما الذي أتى بكنّ في هذه الساعة يا بنات؟»

حدقت الثلاث بها بتعجب لعدة ثوانٍ وقبل أن ترد أي منهنّ عليها تنحت هي عن المدخل وقالت : «تفضلنّ ..»

دخلت الفتيات بينما بقيت (أم حسن) تراقبهنّ وهنّ يدخلنّ واحدة تلو الأخرى للمنزل ويقفنّ تباعاً وسط غرفة المعيشة وعلى وجوههنّ الرهبة والتوجس وهنّ يستكشفنّ الأجواء الغريبة المحيطة بهنّ فقد كانت جدران الغرفة مصبوغة باللون الأحمر الفاقع ولم يكسره سوى بعض القطع المريبة التي عُلقت عليها مثل الأقمشة الصوفية والتحف

المعدنية وبعض الدمى القبيحة والجماجم الحيوانية أبرزها كان جمجمة تيس بقرون كبيرة. أغلقت (أم حسن) الباب وسارت بخطوات بطيئة تتأمل الفتيات بصمت وبنظرات متفحصة حتى جلست على إحدى الأرائك واضعة ساقاً على ساق ملتقطة علبة سجائر كانت على المنضدة بجانبها قائلة :

«ما بكنّ واقفات هكذا؟ .. تفضلن بالجلوس»

جلس الجميع على أريكة كبيرة أمامها وبقين صامتات يحدقن بها وهي تشعل سيجارة بولاعة أخرجتها من جيب صدرها ..

(أم حسن) نافخة سحابة من الدخان باسمة بخبث : «بماذا يمكنني أن أخدمكنّ؟»

فجأة وبدون مقدمات قالت (نجوى) : نريد عملاً!

(أم حسن) ضاحكة : عمل؟!.. عمل ماذا؟!.. هل أخبركن أحد بأني أقوم بتوظيف العاطلات؟!

حدقت الفتاتان الأخريان بصاحبتهما بتعجب لكنهما لم تعلقا ..

نهضت (أم حسن) وهي لا تزال تضحك وقالت :

«دعنّي أعد لكن بعض الشاي فهذا ما أستطيع تقديمه لكنّ الآن!»

بعد خروج (أم حسن) من غرفة المعيشة للمطبخ المجاور التفتت (منى) على (نجوى) وقالت بعصبية مكبوتة : «ماذا تفعلين؟!.. هل جننتِ؟!»

(سمر) بالعصبية نفسها : هل تريدين كشفنا يا حمقاء؟!

(نجوى) بخليط من التحرج والندم :

«لا أعرف ماذا طرأ عليّ .. نظراتها لي أربكتني وشعرت بالتوتر وقلت ما قلته ظنّاً مني أنه سيختصر الطريق علينا ..»

(منى) : من الآن وصاعداً اسكتي ولا تتفوهي بشيء واتركي الحديث لي!

(سمر) بتجهم : نعم لا تتحدثي مطلقاً!

(منى) ملتفتة إليها : وأنتِ كذلك لا تتكلمي!

(سمر) : وماذا فعلت أنا كي تسكتيني؟!

قوطع جدالهنّ بعودة (أم حسن) بخطوات متبخترة لغرفة المعيشة حاملة قطة بيضاء سمينة بين ذراعيها لتجلس مجدداً أمامهنّ باسمة قائلة : «الإبريق على النار ..»

(منى) : قطة جميلة ..

(أم حسن) وهي تداعب عنق القطة في حجرها بأناملها المدببة ونظرها مرتكز على أعين (منى) : «نعم .. القطط كائنات تملك عزة وأنفة ..»

(منى) ونظراتها تزداد حدة لأعين (أم حسن) المحدقة بها : ماذا عن الكلاب؟

(أم حسن) : ماذا عنها؟

(منى) : ما رأيك بها؟ .. هل تعجبكِ؟

(أم حسن) موجهة نظرها للقطة خلال مداعبتها : لا أعرف فلم أقتنِ كلباً من قبل ..

(منى) : ولمَ لا؟ .. الكلاب حيوانات وفية ويمكن أن تكون حراساً مفيدة لامرأة تعيش وحدها .. الوحدة شيء متعب للنفس

تبسمت (أم حسن) دون أن ترفع نظرها وقالت :

«أنا أعيش وحدي منذ زمن طويل والأمر ليس بذلك السوء ولا أحتاج أي أحد .. أستطيع حماية نفسي بنفسي ..»

لم تكمل (منى) حديثها وشعرت بأنها ليست مرتاحة لسبب ما من

هذا الحوار الذي استأنفته (أم حسن) بسؤال سألته وهي تضع القطة البيضاء السمينة على الأرض عند أقدامها الخافية وقالت : «أخبريني يا (منى) كيف حال أمكِ؟»

(منى) بتهكم : أمي بخير .. ألم تلتقي بها اليوم؟

(أم حسن) : بلى .. أمكِ امرأة طيبة جداً .. أشعر بالراحة عندما أتحدث معها

(منى) : أعرف أنها طيبة وتعامل الناس بنية صافية لذلك لا أريد لأحد أن يستغل طيبتها تلك ويمسها بسوء

(أم حسن) ملتفتة لـ (سمر) : لمَ أنتِ صامتة؟ .. هل منعكِ أحد من الحديث معي؟

(سمر) بارتباك : أنا؟! .. لا ..

(أم حسن) موجهة سؤالاً آخر لـ (نجوى) :

«وأنتِ لمَ سكتِّ فجأة؟ .. كنتِ متحمسة للحديث قبل قليل .. لمَ خرستما فجأة؟»

(منى) : نحن هنا لغرض محدد وسنرحل في الحال

(أم حسن) معيدة نظرها لـ (منى) :

«تردن عملاً كما قالت الجميلة ذات الشعر الطويل؟»

(منى) : لا .. نريد شيئاً آخر

(أم حسن) : في كل الأحوال أنا سعيدة لزيارتكنّ فأنا لا أحظى بالزوار إلا لغرض العمل

(سمر) : وأي نوع من الأعمال تمارسين؟

أشارت (أم حسن) لطاولة وراءها فوجه الفتيات أنظارهنّ نحوها وشاهدن مكينة ومجموعة من أدوات الخياطة من بينها إبرتان طوليتان للحياكة اليدوية فقالت (نجوى) وهي سارحة في ذلك المنظر برقة ممدودة : «هل تحبين الحياكة؟»

(أم حسن) : في الحقيقة هي عملي ومصدر رزقي ..

(منى) : لم أسمع بذلك من قبل؟

(أم حسن) : لقد اشترت أمك مني بعض القطع من قبل .. ألم تخبرك بذلك؟

(منى) : لا .. لم تخبرني بشيء

(أم حسن) موجهة الحديث لـ (نجوى) : بأي صف تدرسن الآن؟

(نجوى) : سنتهي السنة الأخيرة من الثانوية هذا العام

(أم حسن) : جميل .. العلم نور كما يقولون

(منى) بنبرة فيها شيء من التهكم والتحقير : ماذا عنكِ أنت؟ .. هل أكملتِ دراستكِ؟

(أم حسن) محركة ساقها وقدمها الحافية فوق ركبتها بطريقة استفزازية : «أنا أدرس حالياً ..»

(سمر) : تدرسين ماذا؟

(أم حسن) بابتسامة صفراء : نوع من أنواع التعليم الذاتي كما تسمونه

(منى) : في أي تخصص؟

نهضت (أم حسن) بعد ما سمعت صفير إبريق الماء في المطبخ وهي تقول :

«تخصص لن تجدوه في المدارس أو الجامعات ..»

بعد ما دخلت (أم حسن) للمطبخ وتوارت عن الأنظار بدأ الفتيات يتجادلن بصوت خفيض ..

(منى) بحماس : لقد كنت على حق! .. ألم أخبركما؟!

(نجوى) : تخبرينا بماذا؟ .. المرأة طبيعية

(منى) : طبيعية؟! .. ألم تشاهدي ما شاهدته للتو؟!

(سمر) : شاهدتِ ماذا يا (منى)؟ .. نعم هي غريبة الأطوار بعض الشيء لكن هذا ليس دليلاً حاسماً على ادعائكِ أنها ساحرة

(منى) بغضب : أصبح ادعائي أنا فقط الآن؟! .. ألم تري كيف ..

توقف الجميع عن الحديث عندما عادت (أم حسن) تحمل صينية استقرت فوقها علبة سكر غُرس فيها ملعقة مذهبة اصطف بجانبها مجموعة من الأكواب الصغيرة تصاعدت منها الأبخرة وتدلى من كل كوبٍ بطاقة ورقية خضراء مربوطة بخيط رفيع ربطت نهايتها بفتحة شاي غمست وسطه وبدأت بتوزيعها أمام الفتيات بيدها اليسرى وخلال ذلك كانت (منى) تومئ برأسها لصاحبتيها لتلاحظا ذلك قامت (أم حسن) بعدها برفع علبة السكر باليمنى وأمسكت الملعقة المذهبة باليسرى وقالت : «كم ملعقة من السكر تفضلن؟»

(سمر) : أنا لشربه بدون سكر

(أم حسن) لـ (نجوى) : وأنتِ يا جميلة؟

(نجوى) باسمة : ملعقتين ..

(أم حسن) بعد ما وضعت ملعقتين في كوب (نجوى) وخلال تقليبها للسكر وتأملها لسطح الكوب : وأنتِ يا (منى) ..؟

(منى) : لا أريد ..

جلست (أم حسن) مكانها بعد ما انتهت من تقليب كوب (نجوى) وقالت لـ (منى) :

«لا تريدين سكراً أم لا تريدين تناول الشاي ..»

(منى) : أريد فقط معرفة الحقيقة

(أم حسن) باسمة بنظرة متسائلة : أي حقيقة؟

في تلك اللحظة سمع الثلاث ما يشبه البكاء البعيد .. بكاء طفل لم يتجاوز الخامسة أو السادسة .. كان الصوت مكبوتاً وبعيداً ولم يبدُ أنه قادم من وسط المنزل ولم يكن بالإمكان تحديد الجهة التي صدر منها لكنه بلا شك كان واضحاً بالرغم من خفوته وضآلته.

(منى) بأعين متسعة : ما هذا الصوت؟!

(نجوى) معيدة كوب الشاي الذي أخذت منه رشفة بسيطة على سطح الطاولة : «كأنه صوت طفل يبكي ..»

(سمر) لـ (أم حسن) والتي تغيرت ملامح وجهها وبدا واضحاً عليها القلق : «هل لديك أطفال .. ؟»

(أم حسن) : أخبرتكنّ بأني أعيش وحدي

(منى) بنبرة استجوابية : ما هذا الصوت إذاً؟

(أم حسن) : ولمَ افترضتِ أنه قادم من منزلي؟ من الواضح أنه قادم من الخارج .. من منزل أحد الجيران على الأرجح

(نجوى) لـ (منى) المستمرة بالتحديق بـ (أم حسن) بنظرات مشككة : «معها حق يا (منى) الصوت بعيد ..»

(منى) لـ (نجوى) دون أن تحيد بنظرها عن أعين (أم حسن) المتوترة : «لا أحد من جيراننا لديه أطفال بهذا العمر ..»

(سمر) : ماذا تريدين أن تقولي؟

(أم حسن) بنبرة متحدية ونظراتٍ طاعنة : نعم يا (منى) .. ماذا تريدين أن تقولي؟

(منى) بثقة وتحدٍّ أكبر : أنا لا أقول أنا ألاحظ فقط ..

(أم حسن) ناهضة من مكانها :

«يمكنكنّ إكمال ملاحظاتكنّ في الخارج .. حان وقت رحيلكنّ ..»

(منى) : هل تطردينا؟

(أم حسن) باسمة وبنبرة متهكمة : نعم .. كي أعتني بطفلي الذي يبكي

(نجوى) تشد معصم (منى) وتقف : هيا لنذهب!

استمرت (منى) بالتحديق بـ (أم حسن) الواقفة أمامها وتنظر إليها بصرامة لعدة ثوانٍ ثم نهضت وخرجت مع صاحبتيها ..

الطريق الممهد بالأشواك

لم تتناقش الفتيات فيما حدث في منزل (أم حسن) حتى عدن ودخلن غرفة (منى) عند العاشرة تقريباً وأغلقن الباب خلفهن وعندها فقط اشتعل الحديث فيما بينهن ..

(منى) بخليط من الحماس والسخط : «هل تحققتما الآن أم أنكما تحتاجان لدليل آخر؟!»

(سمر) : لا مجال للشك الآن .. هناك شيء مريب يحدث في ذلك المنزل

(نجوى) : لا أريد أن أكون الصوت المحبط هنا ولكني ما زلت غير متيقنة

(منى) : تتيقنين من ماذا؟! . .ألم تسمعي ما سمعناه؟!

(نجوى) : بل .. لكن ..

(سمر) مقاطعة : لكن ماذا يا داهية؟

(نجوى) : الصوت لم يكن صادراً من المنزل .. ذلك كان جلياً .. ولا حتى من الطابق العلوي .. وكما قالت بأنه على الأرجح صادر من بين أحد الجيران

(منى) : أي جيران؟! .. نحن المنزل الملاصق لها عن يسارها وعن يمينها تسكن (أم علي) وهي سيدة كبيرة تعيش وحدها مع خادمتها .. فعن أي جيران تتحدثين؟!

(نجوى) : وهل هذا الصوت والذي مازلت أشك بمصدره كافٍ لتبلغ الشرطة؟ .. سوف نظهر بمظهر سيء ومحرج إذا لم يجدوا شيئاً .. لعله مجرد صوت التلفاز أو المذياع صادر من بين جارتكم (أم علي)

(منى) : بالطبع لا .. هذه الزيارة كانت فقط لتحفيزي للإقدام على الخطة الأصلية بدلاً عني

(سمر) : أي خطة؟

(منى) : أنا لم أصرح عن نيتي الحقيقية خشية أن تتراجعا لكني سوف أخبركما الآن بعد ما حصلت على الخيط الذي أحتاجه .. سوف نعود

مرة أخرى غداً لمنزلها دون علمها ونفتشه حتى نجد الدليل الذي نبحث عنه

(نجوى) : ولو كشفتنا؟!

(منى) : هي لن تكون موجودة من الأساس وقتها .. هل نسيتِ أنها سترافق أمي في مشوارها لمنزل تلك الفتاة التي تريد خطبتها لأخي

(سمر) : نعم صحيح .. نسيت هذا الأمر

(منى) : وقتها ستكون الفرصة سانحة لنا للتسلل لبيتها والبحث كما نشاء دون أي منغصات

(نجوى) : وكيف سندخل؟

(منى) : ستقفز إحدانا من فوق السور بالطبع وتفتح الباب للبقية

(نجوى) : وإذا شاهدنا أحد من المارة في الشارع ونحن نتسلق السور؟

(سمر) : هل أنتِ حمقاء حقاً أم تتظاهرين بذلك؟ .. لمَ نخرج للشارع والبيتان متلاصقان؟ .. بالطبع سوف نتسلق من الفناء الخلفي لمنزل (منى)

(نجوى) واضعة كفها على جبينها : آه نعم .. اعذراني .. منذ أن عدنا من بيتها وأنا لا أشعر بأي بخير وتركيزي مشتت

(منى) بقلق : ما بكِ؟

(نجوى) : لا شيء .. فقط أشعر ببعض النعاس

(منى) رافعة اللحاف عن فراشها : تعالي .. يمكنك الاستلقاء عو فراشي للنوم

(نجوى) سائرة نحو السرير : «أنا مستغربة من هذا النعاس في هذ الوقت .. إنه ليس وقت نومي المعتاد ..»

(سمر) : لقد كان يوماً مرهقاً لنا جميعاً

(منى) وهي تغطي صاحبتها بعد استلقائها : لا بأس نامي وسوف نلحق بكِ بعد قليل

(نجوى) : وأين ستنامان؟

(منى) : أمي أعدت لنا بعض الأغطية والمخدات لا تقلقي

أغمضت (نجوى) عينيها وغفت مباشرة ..

(سمر) تتأملها باسمة : المسكينة تبدو متعبة بحق

(منى) : مع أنها أخذت غفوة اليوم عندما تركناها وذهبنا لنصلي مع أمي

(سمر) : بالحديث عن أمك .. لا تقلقي لن يحدث لها شيء

(منى) : لا أعرف يا (سمر) .. تلك المرأة وبالرغم من أن معرفتنا بها ليست بالقصيرة وكنت دائماً مرتابة تجاهها لكن ولأول مرة أشعر بالخوف بحق منها وعلى أمي وأخشى ألا أستطيع حمايتها منها

(سمر) واضعة كفها على كتف صاحبتها : «أعدك بأننا لن نخرج من منزلها غداً دون دليل يدينها ويبعدها عن طريقكِ وطريق خالتي للأبد ..»

بعد عدة ساعات قضتها الفتاتان في الحديث بأمورٍ أخرى قررتا الخلود للنوم فأعدتا لهما فراشين بسطتاهما على الأرض بجانب السرير الذي استلقت عليه (نجوى) وأطفأتا الأنوار وسارت (منى) لتغلق الستائر لكن استوقفها مشهد في الشارع رأته من خلال النافذة وقالت لـ (سمر) وهي تشير لها بالاقتراب : «تعالي هنا وانظري ..»

نهضت (سمر) من فراشها ووقفت بجانب صاحبتها تشاركها النظر وهي تقول : ماذا؟

أشارت (منى) بسبابتها لسيارة كبيرة تقف أمام منزل (أم حسن) ..

(سمر) : ما هذه السيارة؟

(منى) : تلك السيارة .. نزل منها للتو رجل ودخل بيت (أم حسن)

(سمر) : ما معنى ذلك؟

(منى) وهي تلتقط صورة للسيارة بهاتفها :

«لا أعرف لكن السيارة لا تزال تعمل .. لنتظر قليلاً حتى نرى ما سيحدث ..»

بعد أقل من عشر دقائق خرج الرجل حاملاً كيساً قماشياً كبيراً على كتفه ووضعه في صندوق السيارة وقبل أن يرحل عاد لعتبة المنزل ومدت له (أم حسن) ما بدا أنه مبلغ من المال ثم ركب سيارته ورحل

(سمر) : ماذا تظنين أن يكون محتوى الكيس .. ملابس؟

(منى) : الطريقة التي حمل بها الكيس لا توحي بذلك .. لقد كان شيئاً أثقل من مجرد ملابس

(سمر) : ماذا يكون إذاً؟

(منى) : لا أعرف لكننا سنعرف غداً عندما نقوم بتفتيش منزلها

(سمر) : لقد بدأت أشعر بالخوف يا (منى) .. أخشى أننا نعبث في أمر أكبر منا

(منى) : لم أصبحتِ تحدثين كـ(نجوى)؟ .. هل ستخلين عني؟

(سمر) : لا أبداً .. أنا معكِ للنهاية .. لكن .. لكن أرجوك كوني حذرة دوماً

ودعت (منى) صاحبتها القلقة وهمست في أذنها قائلة : سأكون بأمان وأنتما معي .. أنتما سندي دوماً .. وأعدك .. سأكون حذرة

ثم أنهت الاثنتان يومهما بإغلاق الستارة والخلود للنوم ..

في اليوم التالي فتحت (نجوى) عينيها ونهضت بثقل من فراشها وهي تشعر بالوهن والإرهاق والتفتت حولها ولم تر أحدًا في الغرفة ولاحظت من خلال النافذة أن الوقت كان مساءً فقالت محدثة نفسها :«لقد نمت مدة طويلة ..»

خلال ذلك دخلت (منى) عليها وعندما رأت أنها استيقظت جلست على طرف السرير وقالت باسمة : «كيف كانت نومتك؟ .. لقد أطلتِ كثيراً..»

(نجوى) بشيء من التيه والضياع : كم الساعة الآن؟

(منى) : قاربت على السابعة مساءً

(نجوى) بتلعثم : هل نمت كل هذا الوقت؟

(منى) : نعم وكنا متعجبتين من استغراقكِ في النوم بهذا الشكل لكننا لم نشأ إيقاظكِ

(نجوى) واضعة يدها على قمة رأسها : أشعر بصداع شديد وعطش أشد

(منى) وهي تهم بالنهوض : سوف أحضر لكِ مسكناً وكوباً كبيراً من الماء

(نجوى) : أين (سمر)؟

(منى) : مع أمي تساعدها في التحضير للذهاب لمنزل أهل الفتاة التي ستخطبها لـ (رجب)

(نجوى) : هل ما زلنا سنعفي بخطتنا؟

(منى) : نعم .. سترحلان بعد ساعة ووقتها سيكون منزل (أم حسن) خاوياً وسنستغل فترة غيابها مع أمي وندخله

وبالفعل بعد خروج (أم رجب) و(أم حسن) توجهت الفتيات لفناء المنزل الخلفي حيث أحضرت (منى) سلماً معدنيًا وأسندته للجدار الفاصل بين المنزلين وقالت :

فمن منا ستقفز فوق السور لتفتح لنا الباب؟»

(نجوى) : (سمر) بالطبع

(سمر) : ولمَ أنا بالذات؟

(منى) : أنتِ أكثر واحدة فينا نحالة ورشاقة وسقوطكِ إن حدث سيكون أخف وطأة منا

(سمر) وهي تبدأ بتسلق السلم : لو حدث لي مكروه فسيكون ذلك في أعناقكما

(نجوى) وهي تثبت السلم بيديها : لا تقلقي لن يحدث لكِ شيء

قفزت (سمر) فوق السور بسهولة وهبطت بأقدامها ويديها في فناء (أم حسن) بنجاح وفتحت الباب الرئيس لصاحبتيها اللتين خرجتا وتوجهتا لباب البيت بعد ما تحققتا من خلو الشارع من المارة وخلال دقائق أصبح الثلاث وسط غرفة المعيشة وأشعلنَ الأنوار وعندها صدمتهن رائحة غريبة.

(سمر) باشمئزاز : ما هذه الرائحة؟ .. لم تكن موجودة بالأمس؟

(نجوى) : كأنها رائحة بخور العود لكنها مختلطة برائحة أخرى مقيتة

(سمر) : أعتقد أنها رائحة بخور العنبر

(منى) : لا هذا ولا ذاك .. هذا بخور الـ «مصطكي» .. أمي تشعله من وقت لآخر لإزالة رائحة الطبخ خاصة عندما تطهو السمك وبالفعل هناك رائحة أخرى مختلطة معها لا أستطيع تمييزها .. لكن دعنا من هذا الآن ولنبدأ في البحث قبل أن يداهمنا الوقت

(سمر) : ومن أين سنبدأ؟

(منى) جالة بنظرها من حولها : لنتفرق ونبحث كلٌ على حدة ومن نجد شيئاً تنادِ على البقية

توجهت (نجوى) نحو السلالم قائلة : «أنا سأبحث في الطابق العلوي ..»

(سمر) سائرة نحو اتجاه آخر : وأنا سأبحث في المطبخ

وقفت (منى) وحدها وسط غرفة المعيشة ثم قالت محدثة نفسها : «سأبحث هنا إذًا ..»

بعد ما يقارب نصف الساعة من البحث لم تجد الفتيات أي شيء مثير للريبة أو يرقى إلى أن يكون دليل إدانة يمكن أن يقدمنه للشرطة فاجتمعن مرة أخرى بغرفة المعيشة وبدأن يتناقشن فيما بينهن عن فكرة إنهاء رحلتهن الاستكشافية والرحيل قبل أن تعود (أم حسن).

(منى) بخليط من الحيرة والتردد : لكننا لم نجد شيئاً يدينها!

(نجوى) : وقد لا نجد .. ربما يكون كل ذلك في رؤوسنا فقط

(منى) : مستحيل! .. لا بد وأن هناك شيئاً لم ننتبه له!

(سمر) : اليت أمامكِ .. هل وجدتِ شيئًا خارجًا عن المألوف؟

(منى) : لقد وجدت في الحمام الكثير من الملابس المتسخة والمتراكمة وكذلك في حوض المغسلة رأيت كومة من الشعر تسد فتحة التصريف

(سمر) : وأنا وجدت طائراً ميتاً على الأرض

(نجوى) : هذا لا يعني شيئاً سوى أنها مهملة في تنظيف المنزل لا اكثر .. أعتقد أن ما نقوم به هو انتهاك للخصوصية أكثر من كونه بحثاً عن أدلة

خلال حديثهن خرجت القطة البيضاء السمينة وبدأت تمسح بظهرها عند أقدام (نجوى) فالتقطتها بين ذراعيها وقالت بنبرة ساخرة :

«هل تجيد إحداكن لغة القطط؟ .. لعلها يمكن أن تخبرنا بشيء مفيد»

(منى) مشيرة للقطة : ما هذا الذي على فمها؟

(نجوى) رافعة القطة متفحصة وجهها : كأنه .. دم

(سمر) : ربما (أم حسن) تطعمها لحوماً نيئة

(منى) : من أين أتت؟

(نجوى) محتضنة القطة مشيرة برأسها لغرفة جانبية بجانب المطبخ : من تلك الغرفة ..

(سمر) : لقد فتشتها سابقاً ولم أجد فيها شيئاً .. تبدو وكأنها مجرد لاستقبال الضيوف

(منى) سائرة نحو مدخل المجلس : لنفتشها مرة أخرى

لم تمض الثلاث وقتاً طويلاً في تفتيش المجلس حتى لمحت (منى) شيئ في إحدى زواياه أثار ريبتها فالتقطته وقلبته بين أصابعها قائلة : «مو سن .. سن صغير بجذور دامية ..»

اقتربت (سمر) منها لتشاركها النظر للسن بين أصابعها : نعم .. سن بشري

(منى) وهي لمعن النظر فيه أكثر : وليس أي سن .. سن لبني ..

(نجوى) واضعة القطة على الأرض مقتربة من صاحبتيها : ما معنى ذلك؟

(منى) قابضة على السن متفكرة : معنى ذلك أنه يعود لطفل لم يتجاوز الخامسة

(سمر) بنبرة متوترة : مثل الذي سمعنا بكاءه بالأمس؟

(نجوى) : لكننا اتفقنا على أن الصوت كان بعيداً ولم يصدر من المنزل

(منى) ملتفتة خلفها عدة بمدخل المجلس : بل ليس من هذا الطابق

(نجوى) : ماذا تقصدين؟ .. أن الصوت كان قادماً من الطابق العلوي؟ .. لقد فتشته هو الآخر ولم أجد شيئاً ومن المستحيل أن يكون الصوت قد أتى من هناك .. كان سيكون أوضح مما سمعناه

سارت (منى) ومن خلفها الفتاتان حتى توسطت غرفت المعيشة ثم أشارت للأرض أسفل منها وقالت : «لا أقصد من الأعلى بل من الأسفل ..»

(سمر) وهي مصدومة : تقصدين .. سرداباً؟!

(منى) : هذا هو التفسير المنطقي الوحيد

(نجوى) : لكننا لم نجد مدخلاً لأي سرداب

(منى) : بالتأكيد سرداب من هذا النوع سيكون مخفيّ بلا شك

(نجوى) وهي تجول بنظرها حولها : ألا ترين أننا نبالغ في تحليل الأمور؟

أشارت (منى) بسبابتها نحو منطقة بين الممر المؤدي للمطبخ وأسفل السلالم وقالت : انظرا هناك ..

اتجهت الفتاتان أنظارهما حيث أشارت (منى) وشاهدتا ثلاجة كبيرة

(منى) : ألا تعتقدان أن مكان تلك الثلاجة غريب ومثير للشك؟

(نجوى) : بل ربما ..

(سمر) : خاصة وأن هناك ثلاجة في المطبخ

(منى) وهي تسير نحو الثلاجة : فلمَ تحتاج ثلاجة أخرى إذاً؟

وقف الجميع أمام الثلاجة الكبيرة وتفحصنها بأنظارهن لثوان ولاحظن أن ظهرها ملتصق بالجدار بطريقة مريبة بدون أي فراغ يذكر ولم يصدر منها صوت الطنين المعتاد الذي يدل على أنها تعمل خاصة وأنها ثلاجة قديمة وليست حديثة.

(نجوى) برهبة : هل نفتحها؟

(سمر) : بالطبع ..

مدت (منى) يدها وفتحت بابها ليتفاجأنّ بأنها مجوفة وتخفي وراءها سلماً خشبياً يقود للأسفل وهبت من جوفه رائحة مقيتة جداً كرائحة الجثث المتعفنة صدمتهن جميعاً وأشعرتهنّ بالغثيان.

(منى) بأعين متسعة محدقة بظلمة الممر السفلي : ألم أخبركما .. لقد وجدنا الدليل ..

(نجوى) ملوحة بكفها أمام وجهها وهي تشعر بالغثيان : لقد عرفنا

مصدر الرائحة البشعة

(سمر) بحماس : لنبلغ الشرطة في الحال!

(نجوى) : ونقول لهم ماذا؟ .. إننا وجدنا سرداباً سرياً؟! .. نحتاج دليلاً أقوى!

(منى) وهي تحدق بظلمة السرداب : الدليل ينتظرنا في الأسفل ..

(نجوى) : لا أحب ما تلمحين إليه

(منى) وهي تتقدم : أنا لا ألمح .. سوف أنزل وأحصل على الدليل بنفسي

(نجوى) : عودي يا حمقاء!

(سمر) : انتظري لنفكر بالأمر!

لم تستجب (منى) لهما واستمرت بالنزول حتى اختفت في الظلمة ..

(نجوى) : هل نلحق بها؟

(سمر) وهي تتقدم : لا خيار آخر أمامنا ولن نتركها بلا شك .. أغلقي الباب خلفكِ عندما تلحقين بي

سوق البراعم

بعد عدة خطوات في الظلمة وصل الفتيات لنهاية السلالم وبدأن يتحسسن الجدران حولهن حتى وجدت (منى) قابسًا كبست عليه منيرة السرداب بالكامل ..

السرداب كان غرفة واسعة بجدران مغطاة بما يشبه الإسفنج الأصفر المبطن وفرش على أرضيته سجادة خضراء ذات نقوش حمراء غريبة لكن المنظر الذي أثار فيهن الرهبة والعجب هو مجموعة من الأقفاص الصغيرة المصفوفة بعضها فوق بعض على أحد جدران تلك الغرفة وبعد ما اقتربن منها وتفحصنها لاحظن أن أحدها التصق بقضبانه

بعض الدماء الجافة ووسطه استقر ديك أسود مذبوح ورأسه لم ينفصل عن جسده وبقي متدلياً بقطعة صغيرة.

(سمر) : منظر مقزز

(نجوى) : مقزز نعم لكنه ليس جريمة في نظر القانون ..

(منى) مشيرة لقفص آخر استقر وسطه قط مشقوق البطن : ماذا عن هذه الجريمة؟

(سمر) بخليط من العجب والتعرف : ما الذي تمارسه تلك المجنونة من طقوس هنا؟

بعد تجول بسيط في ذلك السرداب لمحت (منى) طاولة صغيرة في الجهة المقابلة استقر فوقها مجموعة من الأدوات فسارت نحوها بخطوات حذرة لاستكشافها وتبعها بقية الفتيات. وقف الثلاث يتفحصن تلك الأدوات المخيفة بأعين مرعوبة فقد كان على سطح تلك الطاولة كماشة ومطرقة ومجموعة من السكاكين بمختلف الأشكال والأحجام وجميعها ملطخة بالدماء الجافة.

(نجوى) بصوت مختنق : ما الذي يحدث هنا؟

(سمر) : هذه المرأة تمارس طقوساً ما بلا شك

(منى) ورقة كانت تحت تلك الأدوات وقرأت محتواها :

ثلاث حبات من التوت الأحمر

حبتان من البندق المقشر

خمس حبات من المشمش منزوعة النواة

سمر) : نص غريب

نجوى) : ما معنى هذا؟ .. هل هذه ورقة حاجيات تريد شراءها من

قالة؟

منى) واضعة الورقة على سطح الطاولة موجهة نظرها لصندوق

طويل كبير خلفها انتبهت له خلال قراءتها الورقة : «أظن أننا في البقالة

فسها ..»

فتح الفتيات الصندوق وصدمن من محتواه فقد احتوى على مجموعة

من ملابس الأطفال الممزقة والمشبعة بالدماء الجافة عدا سروالاً منها

كانت الدماء عليه حديثة وكذلك وجدن فوطة قطنية مبللة بسائل

أصفر فاحت منها رائحة قوية كرائحة البول.

نجوى) وهي على وشك أن تتقيأ : لنخرج في الحال لم أعد أحتمل

كل هذا!

(منى) رامية الفوطة وسط الصندوق : هل ما زلتِ ترين أنه لا يوجد جريمة هنا؟

(سمر) : حان الوقت لإبلاغ الشرطة فلم يعد هناك مجال للشك بأن هذه المرأة ارتكبت فظائع هنا وأنها قد قامت بخطف ذلك الطفل الذي سمعنا صوته بالأمس .. يجب أن نبلغ السلطات فوراً

(منى) مخرجة هاتفها من جيبها : نعم أتفق معكِ

(نجوى) : لمَ لا نعود للمنزل ونبلغهم من هناك؟ .. فنحن لا نعلم أي خطر قد نقبل عليه لو بقينا أكثر في هذا المكان

(منى) مقربة سماعة الهاتف من أذنها بعد ما طلبت الرقم : لن تستغرق المكالمة أكثر من دقيقة وسنرحل بعدها

تواصلت (منى) مع مركز الشرطة وأبلغتهم بكل شيء وزودتهم بالعنوان فطلبوا منها ترك الموقع ريثما يصلون ..

(منى) معلقة الخط : حسناً .. هيا لنخرج من هنا الشرطة في طريقها

قبل أن تتقدم أي منهنّ نحو السلم المؤدي للطابق العلوي سمعن صوت بكاء واستجداء لطفلة قادماً من أسفلهن فنظرن بعضهن لوجوه بعض بتعجب وقالت (سمر) : «هل هناك سرداب آخر؟»

تركت (منى) على ركبتيها بسرعة وبدأت تتحسس بكفوفها سطح السجادة الخضراء ثم قالت بنبرة مفزوعة : «هناك شيء أسفل السجادة!.. ساعدنني في إزالتها في الحال!»

تعاونت الفتيات على طي السجادة الخضراء كاشفات باباً صغيراً بمقبض بحوف محفور وسطه فقبضت عليه (منى) بتوتر ورفعته لتهب عليهن رائحة عفنة جداً أسوأ من السابقة تبعها صيحات استغاثة وبكاء لمجموعة من الأطفال في القاع. لم يكن هناك سلمٌ للنزول بل مجرد حبل سميك رُبط بحلقة معدنية معلقة ومثبتة بإطار الباب الأرضي الصغير ويتدلى لوسط تلك الحفرة المظلمة لكن ذلك لم يمنع (منى) من شده والبدء في النزول فقالت (نجوى) بقلق شديد : «لمَ لا ننتظر الشرطة؟»

(منى) ورأسها يختفي نزولاً : «لا يمكنني تجاهل هذه الأصوات المستغيثة!»

تبعها (سمر) بالنزول ومن خلفها (نجوى) بالرغم من ترددها في التقدم بذلك ..

بعد أن حطت أقدامهنّ على أرض ذلك المكان المجهول والمظلم تعالت أصوات الأطفال المستنجدين حولهن فأشعل الثلاث كشافات

هواتفهن فانقبضت صدورهن وجفت حلوقهن مما رأينه أمامهن وهي خمسة أقفاص حديدية مشابهة للأقفاص التي وجدنها في الأعلى لكنها لم تكن خاوية بل حُبس في وسط كل واحد منها طفلة أو طفل عار وعلى أجسادهم ظهرت علامات التعذيب وكانوا متقرفصين كالقردة المأسورة لأن حجم تلك الأقفاص الصغير لم يسمح لهم بالوقوف بشكل كامل منتصبي القامة.

فاحت من المكان رائحة مثيرة للغثيان بسبب فضلات الأطفال التي تجمعت أسفل منهم. لم تستطع (نجوى) تمالك نفسها وتقيأت وبدأت بالبكاء. تسمرت (سمر) مكانها وقالت بصوت مشبع بالجزع وأعين غارقة بالدموع :

«يجب أن نخرج من هنا في الحال ..»

(منى) سائرة نحو الأقفاص وبنبرة واثقة : لن أخرج قبل أن أحررهم!

حاولت (منى) بمساعدة (سمر) فتح تلك الأقفاص لكن دون جدوى فقد كانت محكمة الإقفال لذا حاولتا في لحظة يأس تحريكها وهزها بأيديهما لكنهما لم تتمكنا من ذلك أيضاً لأن الأقفاص كانت ملحومة بعضها ببعض وكأنها قطعة واحدة.

(سمر) وهي تتنفس بثقل جراء شعورها بالتعب من تكرار محاولة فتح الأقفاص :

«لن نتمكن من تحريرهم .. لنخرج من هنا وننتظر وصول الشرطة بمنزلك .. هذا هو خيارنا الوحيد ..»

نزلت (منى) على ركبتيها أمام الأقفاص متأملة الصغار المستنجدين وقالت بعصبية وعيناها تدمعان :

«مستحيل أن أترك هؤلاء المساكين وحدهم في هذا المكان! .. المعتوهة التي حبستهم لا بد وأنها في طريق العودة الآن!»

(نجوى) وقد استعادت بعضَ تركيزها :

«لا تكوني مجنونة! .. الشرطة في طريقها وهي من سيخلصهم ويقبض عليها لقد قمنا بواجبنا وانتهى الأمر ويقاؤنا هنا أكثر لا فائدة منه!»

(سمر) واضعة كفوفها على أكتاف (منى) الجاثية أمام الأقفاص :

«معها حق .. هيا لنذهب..»

(منى) نافضة أكتافها بعنف صارخة في صاحبتيها رامية مفتاح منزلها على الأرض أمامهما : ارحلا أنتما وأنا سأبقى معهم!

(نجوى) وقد بدأت تنهار : لن نتركك وحدك!!

(منى) : وأنا لن أتخلى عنهم!!

شدت (سمر) ذراع (نجوى) بعد ما التقطت المفتاح من على الأرض وأخذتها جانباً وحدثتها بصوت غير مسموع لـ (منى) : ماذا نفعل؟

(نجوى) بانفعال وتشتت : لا أعرف! .. لا أعرف! .. لقد فقدت عقلها!

(سمر) رافعة هاتفها : سأحاول الاتصال بالشرطة مجدداً

عندما رفعت (سمر) الشاشة أمام وجهها اكتشفت أن أبراج التغطية معدومة فسألت (نجوى) وطلبت منها أن تستخدم هاتفها فأجابتها بأنها تعاني من المشكلة نفسها فقالت لها :

«يجب إذاً أن نصعد للأعلى كي نكرر الاتصال ..»

قبل أن تتحرك أيٌّ منهما لاحظت (سمر) أن هاتفها خلال رفعها له تسلط ضوؤه على باب خلفهنّ لم يكن واضحاً لهنّ في الظلمة عند نزولهنّ لأول مرة وقالت وهي مصدومة :

«هناك باب ..»

التفت الجميع بمن فيهن (منى) المتقرفصة عند الأقفاص نحو الباب

الذي اقتربت منه (سمر) بخطوات حذرة مسلطة عليه المزيد من الضوء وشاركتها (نجوى) الأمر نفسه

رقت الاثنتان بعضهما بجانب بعض تحدقان بالباب بجزع لأنه كان مصمتًا بخليط من الدماء والفضلات البشرية المتيبسة على سطحه ومقبضه كان يلمع وكأن بعض الزيت قد سُكب عليه لكن سرعانها تقطع بعد ما شقت (منى) تلاصقهما ووضعت يدها على مقبضه الزلق وأدارته.

غرفة في قلب الشيطان

باب يفتح ..

درفته تتحرك ببطء ..

كاشفة عن شرطيين يقفان خلفه ..

يسأل أحدهما المرأة التي فتحت لهما ..

«هل أنتِ صاحبة المنزل ..؟»

(لم حسن) بتعجب : نعم .. أنا صاحبة المنزل .. هل هناك مشكلة؟

(الشرطي ١) محاولاً النظر خلفها لوسط البيت : لقد وصلنا بلاغ بخصوص هذا المنزل؟ .. هل أنتِ من قدم البلاغ؟

(أم حسن) بتعجب : بلاغ؟ .. لا لم أقدم أي بلاغ .. لقد وصلت للتو قبل دقائق من الخارج حتى أني لم أحق أن أبدل ملابسي .. ما الحكاية بالضبط؟

(الشرطي ٢) : هل يمكننا الدخول وأخذ جولة للتحقق؟

(أم حسن) ملتفتة خلفها للحظة : بالتأكيد .. تفضلا

تقدم الشرطيان ودخلا وسارا وهما يجولان حولهما بأنظارهما متفحصين المكان حتى وصلا لوسط غرفة المعيشة وقال أحدهما : «من يقيم معك؟»

(أم حسن) : لا أحد .. أنا فقط

تفرق الشرطيان وفتش كل واحد منهما أحد الطوابق وبعد مدة من البحث والتقصي عادا لغرفة المعيشة حيث كانت (أم حسن) تقف بانتظارهما واعتذرا منها على الإزعاج.

(أم حسن) : لا أبداً هذا واجبكما

(الشرطي ١) مخرجاً هاتفاً محمولاً : سوف نجري اتصالاً أخيراً بالرقم الذي قدم البلاغ قبل أن نرحل

(أم حسن) بشيء من التوتر : من هو مقدم البلاغ؟

(الشرطي ١) واضعاً السماعة عند أذنه : لست مخولاً بالإفصاح عن هوية

(الشرطي الثاني) بسرعة فسأله زميله : ما بك؟

(الشرطي ١) : الخط مقفل أو خارج التغطية ..

(الشرطي ٢) : قضي الأمر إذاً

(أم حسن) بارتباك : ماذا تقصد بـ «قضي الأمر»؟

(الشرطي ٢) : معنى هذا أنها حالة بلاغ كاذب وإزعاج للسلطات وسوف نتعامل مع صاحب البلاغ ونستدعيه للقسم ليحاسب

(أم حسن) باسمة : أعانكم الله على مثل تلك الإزعاجات

(الشرطي ١) : شكراً لسعة صدرك نستأذنك الآن

(أم حسن) : عذراً .. هل لي بسؤال قبل أن ترحلا؟

(الشرطي ١) : بالتأكيد .. تفضلي

(أم حسن) : ماذا كان فحوى البلاغ المقدم ضدي؟ .. الفضول يتابني .. لم لست مخولاً بالإفصاح عن هذه المعلومة أيضاً؟

تبادل الشرطيان بعضهما لبعض لثوانٍ ثم تحدث أحدهما بجدية : «فتاة اتصلت وأبلغتنا بأن هناك طفلاً مخطوفاً وساحرة تحتجزه هنا ..»

تغيرت ملامح (أم حسن) لكنها تماسكت وقالت بضحكة مصطنعة :

«ساحرة تحتجز مجموعة من الأطفال؟! .. قصة مشوقة! .. خيال البعض واسع ..!»

(الشرطي ٢) : وستدفع تلك الشابة ثمن خيالها هذا عندما نقبض عليها

(أم حسن) : أتمنى ذلك .. هل يمكن أن أعد لكما بعض الشاي؟

(الشرطي ١) : لا، شكراً لقد أخذنا من وقتك ما يكفي ونكرر اعتذارنا على إزعاجك في هذا الوقت من الليل

(أم حسن) وهي ترافقهما لباب الخروج :

«بالعكس هذا واجبكما وأنا أشعر بأمان أكثر بعد زيارتكما لي ..»

بعد ما ودعت (أم حسن) الشرطيين وأغلقت الباب تجهمت وجرت بخطوات متسارعة نحو مدخل السرداب وفتحت باب الثلاجة لكن وقبل أن تنزل فكرت لعدة ثوانٍ ثم أعادت إغلاقه وصعدت لغرفتها في الطابق العلوي.

في تلك الأثناء دخل الفتيات الغرفة في السرداب الثاني واكتشفن أمراً مريعاً ..

كانت الغرفة مظلمة بالكامل لكنهنّ استعنّ بكشافات هواتفهنّ لاستكشاف جوانبها ورأين أن سقفها وجدرانها كسيت بنوع من الحجارة الحجرية الملساء ورسم على أرضها في المنتصف رمز غريب بحجم كبير أحاط به مجموعة من الشموع البيضاء والحمراء نصف المائة لكن صدمتهن الكبرى أتت مما شاهدنه ملقىً على ذلك الرمز وهي جثة طفل صغير مشقوقة الصدر والبطن ومفرغة الأحشاء بفمٍ مفتوح وأحد أسنانها الأمامية مفقود.

(منى) وهي ترجف جزعاً : إنه نفسه الطفل الذي وجدنا سنه بالأعلى!

(سمر) واضعة كفها على فمها ويكاد يغمى عليها : لقد كنا على حق ..

(جنون) وحالتها ليست أفضل من البقية : لقد تأخرت الشرطة .. لمَ يأتوا حتى الآن؟!

(منى) بتوتر جنوني : اخرجا في الحال واصعدا للأعلى لتحصلا على تغطية وعاودا الاتصال بهم في الحال المسألة أصبحت أخطر مما ظننا!!

(جنون) : ماذا عنك؟!

(منى) : أنا سأبقى مع الأطفال حتى تصل النجدة فقد بات الأمر لا يحتمل الآن!

(سمر) وهي تشد ساعد (نجوى) : هيا بنا! .. يكفي ما أضعناه من الوقت!

خرج الثلاث من الغرفة ووقفت (منى) أسفل الحبل المتدلي وهي تراقب صاحبتيها تتسلقانه قائلة لهما :

«بعد ما تجريان الاتصال عودا للمنزل فوراً وابقيا هناك حتى تصل الشرطة ..»

(نجوى) وهي متشبثة بالحبل : كيف نتركك هنا وحدك؟

(سمر) لـ (منى) خلال مدها ذراعها من الأعلى لـ (نجوى) بهدف وصولها لمعاونتها :

«المكان غير آمن يا (منى) .. عودي معنا!»

(منى) ورأسها مرفوع محدثة صديقتيها اللتين وصلتا للسرداب الأول من خلال الفتحة الأرضية : «لا تقلقا سيكون كل شيء على ما يرام فقط اتصلا بالشرطة في الحال ..»

أغلقت (سمر) الباب الصغير تاركة (منى) في الظلمة مع بقية الأطفال

لم تمض دقيقة حتى سمعت (منى) صرخة مدوية قادمة من الأعلى .. صرخة (نجوى) .. تبعها دبيب قوي على أرض السرداب الأول وكأن شخصين يتعاركان ثم انطلقت صرخة أخرى لكنها هذه المرة كانت من (سمر) مما دفعها للإمساك بالحبل المتدلي والتسلق على عجالة حتى وصلت للباب ودفعت سطحه بكفها مطلة برأسها لترى (نجوى) مستلقية على الأرض بلا حراك وسكين كبيرة مغروسة في صدرها وفي الجهة الأخرى شاهدت (أم حسن) وهي لا تلبس شيئاً سوى ملابسها الداخلية وجسدها ملطخ بالدماء تمسك بيدها مطرقة برأس دام وتقف فوق (سمر) تراقبها بوجه متجهم وتتنفس بثقل بعد ما وجهت لرأسها ضربة. خرجت (منى) من الفتحة وانطلقت بسرعة واصطدمت بجسدها بكل قوتها بـ (أم حسن) وأسقطتها أرضاً وهرعت نحو (سمر) الفاقدة للوعي وتحققت من أنها لا تزال تتنفس لكنها أصيبت بجرح غائر في رأسها كانت تنزف منه بغزارة.

رفعت (منى) رأسها وأدارت نظرها لليسار عندما سمعت (أم حسن) تصرخ كالمجنونة وشاهدتها تندفع نحوها رافعة المطرقة بنية توجيه ضربة لها لكنها لم تلحق أن تتفاداها وتلقت ضربة صاعقة برأس المطرقة على فكها تحطم على أثرها بعض أسنانها الأمامية وسقطت على الأرض بجانبها حينما اصطدم خدها بالأرض.

لم تفقد الوعي بالكامل لكنها كانت في حالة من التيه الشديد جراء تلك الضربة القوية التي تلقتها فنهضت ببطء ورأسها وفكها ينبضان ألماً وفمها ينزف بغزارة وخلال نهوضها كانت تسمع صوت دبات متلاحقة فالتفتت خلفها لتجد أن مصدر تلك الدبات هو ضربات (أم حسن) بمطرقتها على وجه (سمر) الذي تهشم وأصبح كومة من العظم المهشم واللحم المفروم.

بالرغم من الألم والحسرة اللذين أحست بهما (منى) وهي تشاهد صديقتها الثانية تموت أمام عينيها بتلك البشاعة إلا أنها شعرت أنها إذا لم تتمكن من الهرب في الحال فسوف يكون مصيرها ومصير الأطفال في القاع نفس مصير صاحبتيها. دخلت (أم حسن) في حالة من السعار الجنوني وبدأت بتشويه جسد (سمر) بسكين جلبتها من الطاولة في زاوية الغرفة وأخذت تقطع أوصالها وتشق بطنها وصدرها مخرجة قلبها وأحشاءها واضعة إياها على رأسها ماسحة بكفوفها الدماء على وجهها وجسدها. نهضت (أم حسن) من فوق جثة (سمر) المزقة وسارت نحو (نجوى) وجلست فوق بطنها ونزعت السكين المرتكزة في صدرها وبدأت بتقطيعها مثلما فعلت مع (سمر).

فورت (منى) في تلك اللحظة أن تستغل انشغال (أم حسن) بتشويه جسد (نجوى) ومشت بخطا مترنحة نحو السلم المؤدي للطابق

العلوي وبالفعل تمكنت من التسلل دون أن تشعر بها وخرجت من باب الثلاجة وهي في حالة من الذهول والجزع تمسح بكفوفها فمها النازف.

بعد وصولها للباب الرئيس أدارت مقبضه وفتحته لكنها أحست أن قواها ستخور وقد يغمى عليها في أي لحظة فتحسست جيبها بحثاً عن هاتفها وأخرجته وحاولت طلب الشرطة لكن لم تستطع بسبب عدم استجابة شاشته للمساتها بسبب تلوث سطحه بالدماء من على يدها. أخذت (منى) تصرخ بقوة على أمل لفت انتباه أي أحد من المارة في الشارع لكن ذلك لم يلفت سوى انتباه (أم حسن) في الأسفل لتجري صعوداً وتخرج من السرداب كالوحش الهائج تلتفت يميناً وشمالاً حتى وقعت عينها على ظهر (منى) الواقفة عند عتبة الباب المفتوح وهي تصرخ مستنجدة.

سقط الهاتف من يدها بعد ما قبضت (أم حسن) على شعرها من الخلف وسحبتها بقوة ورمت بها وسط غرفة المعيشة وأغلقت الباب خلفها. استنزفت (منى) آخر قطرة من قوتها في محاولتها الأخيرة لطلب النجدة واستسلمت لمصيرها وأغمضت عينيها وقبل أن تفقد الوعي سمعت (أم حسن) تدنو منها قائلة : «فتاة فضولية حمقاء ..»

فتحت (منى) عينيها عند منتصف الليل تقريباً لتجد نفسها مقيدة الأقدام والسواعد مرمية على أرضية السرداب الثاني بجانب الأقفاص الحديدية التي حجز فيها الأطفال العراة وقد تمكنت من الرؤية من خلال ضوء لهب شمعة صغيرة متقدة في إحدى الزوايا. قبل أن تدرك ما كان يدور حولها سمعت الباب وسط المكان يفتح لتخرج منه (أم حسن) وهي لا تزال مرتدية ملابسها الداخلية ومعظم جسدها مغطى بخليط من الدماء الجافة والحديثة تحمل بيدها كيساً بلاستيكياً شفافاً حوى ما بدا أنه بعض اللحم أو الأعضاء وعندما شاهدت (منى) تراقبها قالت: «استيقظتِ يا أميرة؟»

(منى) بصوت خالطه بعض البكاء: ما الذي تفعلينه بهؤلاء الأطفال؟!

أخذت (أم حسن) بعض الخطوات نحو الأقفاص ثم وضعت الكيس فوق أحدها محنية النظر في الأطفال المرعوبين منها ومن نظراتها الجنونية: «ألم تري محل جزارة من قبل؟»

صدمت (منى) من هول ما سمعت ولم تقوَ على الكلام..

(أم حسن) سائرة نحوها مستأنفة حديثها:

«الشيء الوحيد الذي منعني من إلحاقكِ بقريتيكِ هو كرامة لأمك فقط..»

(منى): هل معنى ذلك أنك ستطلقين سراحي؟

(أم حسن) بضحكة مستهترة ومتندرة:

«أطلق سراحكِ؟! .. بعد ما رأيتِ ما رأيتِه؟! .. مستحيل!»

(منى): ماذا ستفعلين بي إذاً؟!

(أم حسن): ما زال الوقت مبكراً على ذلك لكن بلا شك سيتم التصرف معكِ بطريقة أضمن بها إسكاتكِ للأبد

(منى): حسناً لا تطلقي سراحي لكن أطلقي سراح هؤلاء الأطفال.. لا ذنب لهم فيما يحدث!

(أم حسن) ضاحكة بقوة:

«أطلق سراح الأطفال؟! .. هؤلاء الملاعين ثم دفع قيمتهم وسيتم تسليمهم لأصحابهم قريباً..»

(منى): هذه هي الحكاية إذاً؟ .. تجارة في الأطفال!

(أم حسن) عائدة نحو الأقفاص بعد ما التقطت الشمعة من على الأرض:

«هذا عمل جانبي لتمويل عملنا الأساسي فقط..»

(منى): عن أي عمل تتحدثين؟

قلبت (أم حسن) طرف الشمعة المشتعل فوق رأس أحد الأطفال لتكويه ببعض قطراتها الساخنة وهي تقول : «خدماتنا كثيرة وكلها للخير والصلاح ..»

بدأ الطفل بالصراخ من الألم مغطياً رأسه بكفيه باكياً ..

(أم حسن) بنبرة جنونية وهي مستمرة بتقطير الشمع على رأس الطفل المتألم :

«لحومهم تصبح ألذ عندما يتألمون ..»

(منى) صارخة فيها : توقفي يا مجنونة!!

تبسمت (أم حسن) وحملت الكيس البلاستيكي باليد الأخرى وبدأت بالسير نحو الحبل المتدلي وعند وصولها أسفل الفتحة المؤدية للسرداب الأول نفخت لهب الشمعة ليحل الظلام الدامس في الغرفة ثم قضمت بأسنانها على طرف الكيس وتسلقت الحبل وخرجت من السرداب مغلقة الباب خلفها.

بكت (منى) بشدة وشاركها بعض الأطفال ذلك البكاء ..

بعد أقل من ساعة ..

سمعوا شيئاً أثار انتباههم وجزعهم في الوقت نفسه ..

عدة طلقات نارية قادمة من الأعلى ..

الأطفال مرعوبون ..

(منى) تطمئنهم بالرغم من رعبها ..

باب السرداب يفتح من فوقهم ..

بصيص نور يدخل عبر الفتحة ..

يتبعه صوت .. صوت رجل ...

«هل يوجد أحد هنا ..»

الخيط الحريري الرفيع

الرابعة فجراً ..

مركز شرطة المدينة ..

قسم « مكافحة الجرائم الخارقة» ..

تجلس (منى) على أريكة من الجلد الأسود البارد ..

تحتضن نفسها بعد ما تحسست بعض الضمادات على وجهها وجسدها ..

طرق الباب ودخل رجل يحمل ملفاً وجلس أمامها على كرسي خشبي ..

تنظر إليه بخليط من التساؤل والضياع ..

«أنا المحقق (نادر) المسؤول عن القضية .. كيف حالكِ الآن ..؟»

(منى) بضياع شديد وبفم فاقد لبعض الأسنان الأمامية : لا أعرف

(نادر) : لقد قُدمت لك بعض الإسعافات الأولية والكثير من المسكنات القوية كي تستطيع الحديث الآن .. أعتذر مقدماً عن ذلك لكن الوقت ليس حليفنا ويجب أن نأخذ أقوالك في الحال

(منى) بصوت ووجه متعين : كنت أظن الشرطة لن تأتي أبداً؟

فتح المحقق الملف بين يديه وألقى عليه نظرة قبل أن يضعه جانباً:

ويبدو أن مختطفتكم ارتكبت خطأً خلال حديثها مع الشرطيين اللذين استجابا لبلاغك الأول وقالت عبارة بقيت ملتصقة في أذهانهما بعدما عادا لمركز الشرطة وبعد أن تناقشا فيما بينهما أطلعاني على الأمر فأمرت في الحال باستخراج أمر بالتفتيش لأن الوقت كان متأخراً وعدنا على الفور للتحقيق معها بشكلٍ رسمي وعندما لم تفتح الباب لنا زادت شكوكنا وأصدرت أوامري للفرقة المصاحبة لي باقتحام المنزل وعندما وجدناها والدماء تغطيها بالكامل وتحمل سكيناً كبيرة بيدها فأمرناها بتسليم نفسها لكنها قاومتنا بإشهار السكين علينا ومحاولة طعن أحد أفراد الشرطة فاضطررنا أن نرديها قتيلة.

(منى) : وكيف وجدتمونا ..؟

(نادر) : تحققنا وقتها أن هناك شبهة حقيقية ومصداقية للبلاغ المقدم

بعد فحص وتفتيش دقيقين لجوانب البيت وجدنا مدخل
ب الذي قادنا إليكم .. نحن ممتنون لمساعدتكِ يا آنسة (منى)
ت لنا الخيط الذي بحثنا عنه طويلاً لإغلاق قضية أرقتنا لمدة

(منى) وعيناها تدمعان : الفضل ليس لي وحدي .. صديقتاي ..

في اللحظة غصت (منى) بكلماتها وأنزلت رأسها وانهارت بالبكاء
عندما تذكرت ما حدث لـ (نجوى) و(سمر) ..

(نادر) بشيء من التردد وبنبرة مواسية :

أكرر اعتذاري على استجوابك في هذا الوقت الصعب لكن القضية
لا تزال قيد التحقيق ونحن نحاول جمع كل الخيوط بسرعة قبل أن
يصل العلم للأطراف الأخرى ويتمكنوا من الهرب .. حتى الأطفال
وبالرغم من حالتهم المزرية إلا أننا نحاول الحديث معهم الآن لجمع
المعلومات التي قد تكون حاسمة لو حصلنا عليها مبكراً كي نوقع
الشبكة كلها

(منى) رافعة رأسها : شبكة؟

(نادر) : نعم .. (أم حسن) لم تكن تعمل وحدها فهي جزء من
مجموعة كبيرة من الساحرات امتهنّ خطف الأطفال بمختلف الأعمار

والأجناس لاستخدامهم في طقوسهن البشعة والتجارة بهم لكل من يقدم الثمن المناسب .. نحن نتابع جرائمهن ونرصدها منذ أكثر من عام

(منى) : أعتقد أن لدي صورة في هاتفي قد تفيدكم ..

(نادر) : صورة ماذا؟

(منى) : لسيارة كانت تقف أمام منزل (أم حسن) بالأمس .. رجل حمل كيساً قماشياً من منزلها لكني لا أعرف محتواه وقدمت له مبلغاً من المال

(نادر) : غالباً تلك السيارة تعود لمن يقوم بالتخلص من جثث الأطفال أو بقاياهم والذين يفقدون حياتهم وهم في الأسر سواء من التعذيب أو سوء المعاملة .. هاتفكِ محتجز مع بقية الأدلة التي جمعناها من مسرح الجريمة .. سوف أستعيده لكِ كي تتمكني من تزويدنا بالصورة قبل رحيلكِ

(منى) : كيف سمحتم لهذه الفظاعات أن تحدث كل هذه المدة؟ .. أين كنتم؟

(نادر) : هذه العصابة من النسوة تمارس جرائمها منذ سنوات عديدة ولم تحول القضية لقسمي إلا قبل عام عندما عجزت الشرطة عن حلها والإيقاع بهن جميعاً

(منى) : لا أفهم .. ألست أنت من الشرطة؟

(نادر) : بلى .. لكني أدير قسماً خاصاً .. قسم «مكافحة الجرائم الخارقة»

(منى) : لم أسمع بهذا القسم من قبل

(نادر) : قسمنا تحوطه بعض السرية لحساسية القضايا التي يتعامل معها .. عندما استلمنا ملف القضية وبدأنا بمراجعته والعمل عليه لفت بعض المحققين عندي تلك العصابة بـ «شبكة العنكبوت» بسبب تمددها وتشعبها ومهما قبضنا على أفراد كثيرة منها لم نتمكن يوماً من القضاء على أنشطتهم بالكامل لأننا أخفقنا في الإمساك بزعيمهم .. العنكبوت نفسها .. رأس الهرم المدبر والمحرك لخيوط العصابة كلها كنا نريد الوصول لمن كانت توجههن وتدير شؤونهن والتي تقوم بتجنيد وتعويض الأفراد الذين يقبض عليهم بسرعة كبيرة لتستمر شبكتها بالنمو وتزويد عملائها المعاتيه بطلباتهم المريضة .. ننجح من وقت لآخر في قطع بعض خيوطها لكنها تنسج غيرها بتدريب المزيد من المشعوذات اللاتي يخدمنها بولاءٍ تام وكنا لا نملك سوى مواصفات سيطة عنها تقدمها كل متهمة نقبض عليها أو ضحية على قيد الحياة ولم نكن نعرف مكان إقامتها لأنها لا تلتقي بهن في منزلها بل هي من تزورهنّ في بيوتهنّ لتزودهن بالأعمال السحرية وتتسلم منهنّ الأطفال الذين يخطفنهم لها ..»

(منى) : وتلك الزعيمة هي جارتنا (أم حسن) ..

(نادر) آخذًا الملف الذي وضعه جانباً آنفاً فاتحاً إحدى صفحاته :

«نعم فجميع المواصفات منطبقة عليها .. لكنّ هناك أمر لا يزال يحيرني أنا شخصياً ..»

(منى) : ما هو ..؟

(نادر) رامياً بالملف مجددًا مخرجاً علبة سجائره :

«أغلب الساحرات اللاتي قبضنا عليهنّ أكدن أن من كانت تقودهن هي (أم حسن) وهذا الوصف تطابق مع أقوال بعض الضحايا الذين تمكنا من إنقاذهم قبل تسليمهم وشاهدوها في بيوت مختطفيهم وهي تفحصهم قبل استلامهم بعدها بأيام وقد وصفوها بدقة عالية لا مجال للشك فيها ما عدا ساحرة واحدة ..»

(منى) : ما بها؟

(نادر) مشعلاً سيجارة نافخاً سحابة من الدخان جانباً بعيداً عن أنفاس (منى) :

«ادعت أن (أم حسن) ليست رأس الهرم الحقيقي وأن هناك من هو أعلى منها وهو المحرك الحقيقي للتنظيم وقد شاهدته مرة واحدة فقط خلال مرافقته لـ (أم حسن) في إحدى الزيارات لمنزلها ..»

(منى) : وكيف علمت أن ذلك الشخص هو الزعيم الحقيقي؟ لعله مجرد زبون عادي يرافقها؟

(نادر) : قالت بأن الساحرات يعرفن بعضهنّ بعضاً وحسب إفادتها فإن (أم حسن) وخلال إحدى زياراتها لها لاستلام طفلة صغيرة منها في وقت متأخر من الليل أتت بصحبة شخص آخر لم يدخل معها لكنه انتظر في السيارة وأنها تعجبت من طريقة معاملتها له عندما خرجت بصحبة الطفلة فقد راقبتها من نافذتها ورأت أنها عندما دنت من نافذة الراكب كانت تعامله بتبجيل عظيم وقبلت يده أكثر من مرة خلال حديثها معه وهي واثقة بأن ذلك الشخص هو القائد الحقيقي للشبكة

(منى) : ولم تقدم لكم هذه الساحرة أو غيرها تلك المعلومات؟ أليس من المفترض أن يكون ولاؤها مطلقاً لمن تعمل لديهم؟

(نادر) : أغلبهم ينهار عندما يعرف أن حكم الإعدام ينتظره ويريد تخفيف العقوبة على نفسه بأي شكل خاصة الساحرات المتدنيات أو اللاتي لم يمضين فترة طويلة في التنظيم

(منى) : ولم لم تجدوا هذا الشخص؟ .. ألم تصفه لكم كي تبحثوا عنه؟

(نادر) آخذاً نفساً آخر من سيجارته :

«تقول بأنه كان متوارياً في السيارة ولم تتمكن من رؤية ملامحه خاصة وأن الوقت كان ليلاً والإضاءة في حيها شبه معدومة ..»

(منى) : وماذا ستفعلون؟

(نادر) رامياً بالسيجارة تحت قدمه داعساً عليها :

«قانونياً إفادات واعترافات الساحرات الأخريات تدين (أم حسن) بالكامل كرئيسة للشبكة وتحملها كامل المسؤولية عن جميع الجرائم وتخلي مسؤولية أي شخص آخر حتى وإن كان له وجود لكننا سنستمر بالبحث عن هذا القائد المزعوم ..»

(منى) : ماذا سيحل بالأطفال؟

(نادر) : لقد تواصلنا مع أهاليهم جميعاً وهم بصحبتهم حالياً خلال التحقيق المستعجل معهم وسوف يعودون لمنازلهم الليلة

(منى) : هل أستطيع مساعدتكم بشيء آخر؟

(نادر) باسماً : لقد قدمتِ الكثير ونحن شاكرون لكِ ذلك .. لقد اتصلنا بأمكِ وطمأناها عليكِ وأخبرناها بأنكِ ستعودين بعد قليل مع

إحدى سيارات الشرطة لكنها أصرت على الحضور لأخذكِ بنفسها لذا أرسلنا السيارة لها وهي في الطريق إليكِ .. أنا لدي ابنة في عمركِ نفسه تقريباً وأعرف شعورها الآن .. لا بد وأنها تكاد تفقد عقلها من القلق

(منى) : شكراً ممتنة لكم

(نادر) : بل نحن الممتنون لكِ ولتضحيات صاحبتيكِ ..

نهض المحقق (نادر) حاملاً الملف وقال قبل أن يهم بالخروج :

«بينما تنتظرين حضور والدتكِ سوف أرسل لكِ هاتفكِ كي تزودينا تلك الصورة ..»

(منى) : حاضر ..

بعد أقل من نصف ساعة دخلت (أم رجب) على ابنتها ووجدتها سارحة تقلب في هاتفها المحمول فجرت نحوها وعانقتها بقوة وأخذت تبكي بحرقة مما دفع ابنتها لمشاركتها البكاء في عناق طويل ثم بسؤال أمها :

«طمئنيني عليكِ .. هل أنتِ بخير؟ .. هل أصابكِ أي مكروه؟!»

(منى) : سأكون بخير ..

(أم رجب) ممسكة بذقن ابنتها بإبهامها وسبابتها ممعنة النظر في أسنانها المفقودة وبصوت مختنق بالعبرات : «ما الذي حدث؟! .. أخبريني!»

(منى) ماسحة دموعها : قصة طويلة يا أمي سأحكيها لكِ لاحقاً

(أم رجب) وهي تخرج بعض الملابس النظيفة وعباءة سوداء من حقيبة أحضرتها معها : «حسناً يا عزيزتي .. البسي هذه وهيا لنرحل من هنا ..»

خلال سيرهما في الممر المؤدي لباب الخروج طلبت (منى) من أمها دخول الحمام فدخلت معها وقالت : «أنا أيضاً أريد استخدام الحمام ..» وبعد انتهائهما خرجت الاثنتان من مركز الشرطة و(أم رجب) محتضنة ابنتها وكأنها تخشى أن يخطفها أحد منها وركبتا السيارة التي أحضرتها وكانت بانتظارهما لتعيدهما للمنزل. خلال الطريق احتضنت الأم ابنتها بقوة وضمت رأسها لصدرها وهي تقرأ القرآن وتنفخ عليها.

(منى) من وراء دموعها ورأسها مسند لصدر أمها : «لم أكن أظن أن العالم بهذا السواد والظلمة ..»

(أم رجب) مقبلة رأس ابنتها ماسحة عليه بحنان :

«مهما كان الظلام دامساً ومعتماً يا ابنتي فنور إيماننا سيبدده .. فليكن إيمانك بالله أقوى وليكن سراجك المنير الذي سيرشدك للطمأنينة ..»

(منى) وهي تشد عناق أمها باكية : «إيماني تزعزع يا أمي.. أشعر بأن الشر أقوى ..»

لم ترد الأم على ابنتها المنهارة واكتفت بالطبطبة على رأسها بكفها وخلال الطريق رُفع أذان الفجر فشعرت (منى) ببعض الراحة ولاحظت أمها ذلك من خلال الأنفاس العميقة التي أخذتها وزفرتها فقالت لها :

«ما رأيكِ بأن نصلي الفجر في المسجد الكبير وسط المدينة الذي يخصص مصلى خاصاً بالنساء ..؟»

هزت (منى) رأسها بالموافقة دون أن ترفعه من على صدر أمها التي وجهت حديثها للسائق وسألته عن إمكانية ذلك فأجابها بقول :

«بالطبع يا سيدتي يسعدني ذلك وسوف أصلي أنا أيضاً وأنتظركما بالخارج حتى تنتهيا ..»

أوقف السائق سيارته أمام مدخل المسجد مباشرة وترجل منها وفتح الأبواب لهما لتسيرا بعدها وتدخلا مصلى النساء الذي كان خاوياً فقالت الأم بحسرة :

«شيء محزن أن تكون المساجد فارغة بهذا الشكل ..»

(منى) : ربما لأنها صلاة فجر ويشق على النساء الحضور في هذا الوقت خاصة وأن صلاة النساء في بيوتها أفضل

(أم رجب) : هذا ليس بعذر يا ابنتي .. المساجد تعمر بمرتاديها .. هيا لنصلي صلاة السنة قبل الإقامة

(منى) مستذكرة : أحتاج أن أتوضأ قبلها

(أم رجب) : حسناً يا ابنتي سأكون بانتظارك هنا

(منى) بشيء من الاستغراب: ألن تتوضئي معي؟

(أم رجب) : لا فأنا على طهارة

(منى) : عذراً يا أمي.. ألم تستخدمي دورة المياه معي عندما كنا في مركز الشرطة؟

(أم رجب) باسمة : بلى .. لكني توضأت بعدها في الحال .. أنا على طهارة دوماً وأنصحكِ بأن تتخذي هذه العادة مثلي كي تحصني نفسك من كل الشرور

تبسمت (منى) وهي تهم بالسير نحو دورات المياه النسائية قائلة : «حاضر يا أمي ..»

بعد عودتها دخلت المصلى لتجد أمها جالسة في الصف الأخير تقرأ القرآن حيث كانت المصاحف مصفوفة فتقدمت هي للصف الأول وصلت الركعتين بالرغم من الألم الذي أحست به في جسدها بالكامل

إلا أنها أحبت الشعور النفسي المريح الذي منحته لها الصلاة وبقيت جالسة بعد التسليمة تسبح وتستغفر حتى نادى الإمام بالإقامة فوقفت (منى) وتحركت نحو منتصف الصف الأول وكبرت لكنها لم تركز في صلاتها بسبب أنها لم تشعر بأن أمها وقفت بجانبها لتصلي معها وما زاد من توترها هو رنين هاتفها خلال صلاتها أكثر من مرة مما دفعها لإخراجه على عجالة وإصماته ووضعه أمامها على الأرض مقلوباً على وجهه.

لم يزل توترها وبقي على حاله حتى سلمت التسليمتين ملتفتة وراءها لترى أمها تنهي التسليمة الثانية في آخر الصف بالقرب من الباب فقالت لها : «لمَ لم تصلي بجانبي يا أمي..»

تبسمت (أم رجب) وقالت بنبرة هادئة : «كل الأرض مساجد لله ..»

بادلت (منى) أمها الابتسام ونهضت من مكانها وسارت نحوها وهي تقول :

«هيا لنعد للمنزل ونتهِ من هذا اليوم المتعب ..»

خرجت الاثنتان وركبتا السيارة لكنهما لم تجدا السائق في مقعده فقالت (منى) :

«غريبة .. أين ذهب ..»

(أم رجب) وهي تفتح نافذتها :

«لقد تركنا في الحر .. افتحي نافذتكِ كي نستنشق بعض الهواء ..»

نفذت الفتاة أمر أمها وخلال قيامها بذلك لمحت الأم السائق من بعيد فأشارت بسبابتها نحوه قائلة : «السائق هناك .. يتحدث بالهاتف على ما أظن ..»

(منى) متحسسة جيبها مفزوعة : «هاتفي! .. لقد نسيته في المصلى .. سوف أذهب لأستعيده!»

فتحت (منى) باب السيارة وقبل أن تترجل منها عاد السائق جرياً ووضع يده على طرف النافذة المفتوحة قائلاً : «إلى أين آنسة (منى)؟»

(منى) : لقد نسيت هاتفي داخل المسجد

(السائق) : صحيح .. لقد اتصل بي المحقق (نادر) وقال لي إنه حاول الاتصال بكِ أكثر من مرة ولم تجيبي عليه ..

(منى) : لذلك أنا الآن ذاهبة لإحضاره ..

بدا السائق متردداً في السماح لها بالنزول لكنه في نهاية المطاف فتح الباب لها وقال :

«حسناً سنكون بانتظاركِ ..»

(أم رجب) : لا تتأخري يا ابنتي لقد عطلنا هذا الرجل الطيب بما يكفي

(السائق) : لا أبداً يا خالة خذا وقتكما

نزلت (منى) من السيارة وجرت بسرعة نحو مصلى النساء ودخلته على عجالة وتوجهت مباشرة لهاتفها المقلوب على أرضية الصف الأول وما أن رفعته حتى شاهدت خمس اتصالات من رقم غريب توقعت أنه رقم المحقق (نادر) كما أخبرها السائق وخلال تأملها للرقم أضاءت شاشة الهاتف مجدداً بالرقم نفسه ففتحت الخط وأجابت : سيد (نادر)؟

(نادر) بنبرة مرتبكة بعض الشيء : آنسة (منى)؟ .. هل أنتِ بخير؟

(منى) بشيء من الاستغراب : نعم بخير ..

(نادر) : هل هناك أحد بجانبكِ؟

(منى) باستغراب : لا، وحدي .. نزلت لأستعيد هاتفي لأننا توقفنا للصلاة في مسجد المدينة الكبير ونسيته في الداخل وأمي تنتظرني في الخارج مع السائق ونحن عائدون الآن .. هل هناك شيء؟

(نادر) بحزم : اسمعيني جيداً وحاولي أن تفهمي كلامي وتستوعبيه ولا تتصرفي أي تصرف أو تتخذي ردة فعل تفسد كل شيء

(منى) وحيرتها تزداد : لقد أخفتني .. أرجوك قل لي ما الأمر؟

(نادر) : لقد قطعنا نصف المسافة إليكم وسنصل عندكم خلال دقائق..

(منى) بتعجب : تصلون؟ .. ما الحكاية أخبرني؟!

(نادر) قبل أن يغلق الخط : لقد شرحت للسائق كل شيء وهو سيتصرف .. فقط ابقي مكانكِ حيث أنتِ ولا تخرجي أبداً حتى نصل!

وقفت (منى) تحدق بهاتفها متعجبة من تلك المكالمة الغريبة وصارعت الرغبة بين الخروج لأمها التي اتقد قلبها قلقاً عليها وبين البقاء مكانها كما أمرها المحقق لكنها في النهاية لم تستطع المقاومة وخرجت جرياً من المصل وبعد عدة خطوات نزولاً من درجات سلم المسجد وصلت للسيارة وفتحت بابها ففوجئت بأن أمها لم تكن في المقعد الخلفي فقالت للسائق : «أين أمي؟»

لم يجب عليها وتجاهلها تماماً ..

كررت سؤالها عليه وهي تفتح بابه ..

وضعت يدها على فمها عندما شاهدته يحدق أمامه بأعين مفتوحة والدم يسيل على ملابسه من شق عميق مر من خلال عنقه ..

وقفت مصدومة من هول ما شاهدته وأصوات صفارات الإنذار تقترب .. خلال دقائق أحاط بها مجموعة من الدوريات ترجل المحقق (نادر) من إحداها ..

جرى نحوها وقبل أن يسألها شاهد السائق مقتولاً فرفع جهازاً لاسلكياً بيده وبدأ يصرخ ويردد عبارة ..:

«العنكبوت طليقة! .. العنكبوت طليقة!»

وجه بعدها الرجال المرافقين له بالتواصل مع جميع الدوريات المناوبة لنشر نقاط تفتيش في مخارج المدينة وتوزيع مواصفات المتهمة عليهم ..

جلست (منى) على الأرض بعد ما سمعت هذا الكلام وقالت وهي ترتجف :

«عن أي متهمة تتحدث؟»

سار (نادر) نحوها ووضع كفه على ظهرها وقال بنبرة مطمئنة : «هيا نعود للقسم ..»

نهضت الفتاة المصدومة وجرت عائدة للمسجد فجرى المحقق خلفها وبعد ما دخلا مصلى النساء وقفت في منتصفه وأخذت تبكي بحرقة ..

(نادر) من ورائها : أعرف أنه ليس وقتاً مناسباً للحديث لكن بعد ما فتشنا منزل (أم حسن) وجدنا أدلة مبدئية تدين أمكِ في تلك الجرائم التي ارتكبتها

(منى) ملتفتة نحوه وهي تجهش بالبكاء : «أمي؟! .. هل جننت؟!»

(نادر) : أعرف أن الأمر قد يبدو غير قابل للتصديق لكن الأدلة شبه جازمة .. هناك الكثير من المراسلات الهاتفية بينهما ومن الواضح أن

أمك هي من كانت تدير «شبكة العنكبوت» و(أم حسن) مجرد نائبة لها

(منى) صارخة فيه : هذا هراء! .. أنتم فقط تبحثون عن ضحية لتلفقوا لها القضية كي تغطوا على تقصيركم!

(نادر) بهدوء : أنا متفهم لحالتكِ في الوقت الراهن ولا أتوقع أن تستوعبي بالكامل ما أخبرتكِ به للتو .. سوف أنتظركِ في الخارج حتى تهدئي لنعود للقسم لنري الأدلة بنفسكِ ونستأنف التحقيق

خرج المحقق (نادر) من المصلى تاركاً (منى) تبكي وحدها ..

في الخارج وقف المحقق (نادر) وأشعل سيجارة وهو يراقب وصول سيارة الإسعاف التي نقلت جثمان السائق ثم سار وركب سيارته وأخذ يتابع تطورات حملات البحث عن (أم رجب) عبر جهاز اللاسلكي وأمر بقية الدوريات بالتحرك للمعاونة وخلال قيامه بذلك لمح (منى) تخرج من المصلى بخطوات بطيئة ونظرات شاردة سائرة نحوه فرمى بعقب السيجارة وترجل من السيارة وبقي يراقبها بصمت حتى وقفت أمامه وقالت بوجه مرهق من البكاء :

«أنا جاهزة للذهاب معك ..»

(نادر) : هل أنتِ بخير ..؟

(منى) : نعم .. لقد رأيت نور الحقيقة بعد ما رفعت كفي للسماء لأدعو الله أن يهديني لها .. وقد استجاب لدعائي في الحال

(نادر) : جيد .. الحقيقة نراها أحياناً بقلوبنا أكثر من أعيننا

(منى) بحسرة : لكني رأيتها بعيني وليس بقلبي .. حقيقة لا يمكنني تجاهلها

(نادر) : كيف لم أفهم؟

(منى) : سقف المسجد فوق مصلى النساء ..

(نادر) : ما به؟

جلست (منى) على طرف أحد السلالم وقالت بهم وحزن كبيرين وهي سارحة أمامها :

«تدلت منه ثريا كبيرة وجميلة ..

أشعت بنورها فوق الصف الأول مباشرة ..»

اذكروني بدعوه ♥♥.